مكتبة نوميديا 90
Telegram@ Numidia_Library

جائزة سعاد الصباح للرواية 2017

المجانين لا يموتون

رواية

آمنة حزمون

الجزائر تقرأ
‹الجزائر تقرأ›

المجانين لا يموتون

أمنة حرمون
المجانين لا يموتون
ردمك: 978-9931-677-38-8
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2018

الجزائر تقرأ
8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى
مدير النشر: عبد الرزاق بوكبة
إيميل: nashr@dzreads.com
/dzreads @dz_reads dzreads.com

جميع الحقوق محفوظة ©

آمنة حزمون

المجانين لا يموتون

إلى جبلِ الوحش

وحدَهُم المجَانين مَن يحترفُون السّعادة المثاليّة، هم فقط من يمتلكون حقَّ الصّراخ واختلاق الفوضى دون أن يلومهم أحد، هم فقط من يملكون حق التّحدّث في شؤون الدّولة والدّين والحياة بأساليبهم الّتي لا يؤمُّها قانون ولا يحكمها رقيب، قومٌ لا يشبهوننا.. وكأنّ الإنسان عندما يفقد عقله يصير أقرب إلى الكائنات الرّوحيّة الّتي لم أرها يوما ولكنّني أعتقد أنّها بدون عقل قد تعيش حياة أفضل، ربمّا التّفكير هو ما يرهقنا ويجعلنا نموت بدل الموت ألفا وندخل قوقعة الحزن بين الحين والحين، عالمٌ جميل برغم ما فيه من غرابة، براءة مطلقة وعيون تخفي ملامحَ طفوليّة بأبعادٍ شابّة، كلّ وجهٍ حكايةٌ وقصيدة، كلّ رقم هنا يحمل اسما لروح مثقلة أرهقتها الحياة فاختارت الجنون لتكمل ما تبقّى من أنفاسها...

هنا في مصحّة الأمراض العقليّة، في أعالي مدينة قسنطينة في مكان يُسمّى «جبل الوحش». تقولُ الأسطورة إنّ وحشًا كان يسكن هذه الأرض وكان سيّدَ الجبل والمدينة وكان يعاقب من يتجرّأُ على سلطته بأن يأخذ عقله ويتركه هائما في الجبل، هذا ما قاله لي أحد المرضى ذات يوم...

قبل أن أبدأ العمل بالمصحّة، كنت أمرّ بنوبة فرحٍ كبيرة ودوار من السّعادة، فقد تحصّلْتُ على معدّل جيّد في امتحان التخصّص وكان بإمكاني اختيار الاختصاص الّذي أريد، كان الكلّ يبارك لي، وأذكر أنّ أمّي أقامت عشاءً كبيرا وعزمت أفراد العائلة فقط لتباهي بي، وكلُّ الأمّهات هكذا، يعشقن المباهاة بأبنائهنّ. ولكنّني سرعان ما صدمتُ الجميع، وكان هذا حسب قولهم وما رأيت في وجوههم من علامات الذّهول، كان ذلك في حفل التّكريم الّذي أقامته جامعة الطّبّ والّذي يصاحب اختيار التّخصّصات وتوزيع المناصب، حيثُ كنتُ من الأوائل في القائمة التّرتيبيّة، وبدأ العدّ التّنازليّ ليصل الدّور إليّ، وكانت الاقتراحات: أمراض القلب، أمراض الغدد، أمراض الجهاز الهضميّ، الأمراض الباطنية والقائمة طويلة، وكنتُ أشعرُ أنّ كلّ الطّلاب يحسدونني على هذه المنزلة الّتي تؤهّلني إلى اختيار ما أشاء من التّخصّصات، ولكنّني فاجأت الجميع باختياري لطبّ الأمراض العقليّة، لم أكن قطُّ مولعةً بأيٍّ مِن تلك التّخصّصات، ولأنّي عاشقةٌ لعلم النّفس وجدتني أنساق بعفويّة إلى الأمراض العقليّة واخترتها بفرح وسرور، نظر إليّ المسؤول عن لجنة الاختيارات بغرابة وأعاد السّؤال: ماذا تريدين كتخصّص؟ ونظرتُ إليه بثقة وكرّرتُ للمرّة الثّانية، طبّ الأمراض العقليّة. كان المدرّج ملتهبا بالهتافات الّتي للآن لم أفهم أكانت تقديرا أم شماتة -على حد قول أمّي-، ما أذكره جيّدا أنّ الطّالبة الّتي نالت المرتبة التّالية بعدي احتضنتني وقالت لي: شكرا لأنّك تركتِ لي اختيار طبّ أمراض القلب وكان قد بقي

منصب واحد، بصراحة كنتُ سعيدة، وبدوتُ للجميع غريبة، رفضتْ أمّي محادثتي وكنتُ أحضرتُها معي لتشهد فرحتي ولكنْ ما حدث العكس، أمّي الّتي لا تفهم شيئا في الطّبّ رأت ما فعلتُه أمرًا لا يُغْتَفر وأنّي تنازلتُ كثيرا ورميتُ نفسي إلى اختصاص لا معنى له، وسمعتُ بعضهم يقول بلهجتنا: دارت «طبيبة تاع مهابل».

هههه صرت طبيبة مجانين إذن؟ وليكن، أنا راضية، أنا سعيدة، أو ليس الاختصاصَ الّذي يعالج الرّوح والعقل؟ أو ليس العقل هو أغلى ما يملك المرء؟ كنت أقنع نفسي بهذه الجمل وكأنّني ندمْتُ قليلًا حينها، ربّما تسرّعتُ، وتشابَكَتْ الأفكار في خيالي، كانت تدور في حلقة مفرغة وتعود لتصفعني بقسوةٍ على روحي، فأشعر ببردٍ يلفُّ ضلوعي وأحاول أن أتنفَّسَ بعمقٍ، لا شيء يا سعاد يدعو إلى كل هذا؟ ما بك؟ منذ الآن أنتِ طبيبة مقيمة وأمامك مشوار قمتِ باختياره ويجب أن تكوني أهلا له.

مرّت تلك السّحابة السّوداء بخير وتجاوزت أزمتي النّفسيّةَ تلك، تدريجيًّا شعرْتُ بالصّفاء الدّاخليّ وبالقناعة والرّضا، تقبّلَتْ أمّي في الأخير تخصّصي وقالت لي- بصوتٍ يخفي مِن ورائه ألغازا لا يُحسن تشفيرها إلّا هي- : أنت الّتي ستتعذّبين هناك، ما دخلي فيكِ؟ فقط لا أريدك أن تأتي إليّ ذات يومٍ شاكيةً باكيةً هذا العذاب.

هههه كانت أمّي تُشعرني بأنّني مقبلةٌ على حربٍ وأنّ هناك سفّاحين ينتظرونني في جبل الوحش لقطع رأسي، لكنّني كنتُ أراها

تجربة جميلةً، لماذا أنا فقط من يراها كذلك؟ في حياتنا لا يفهمنا أقرب النّاسِ إلينا، لا ينصتون إلى مشاعرنا الصّارخة ولا يسمعون خوافقنا الّتي تئنّ تحت وطأة هذا القدر... آه... تعود البسمة كعادتها لترسم ملامحها الثّلاثيّة الأبعاد على هذا الوجه الطّفوليّ، هكذا كان من حولي ينعتُ ابتسامتي، سعاد.. أنا تلك الفتاة الّتي لطالما تفوّقَتْ وتميَّزَتْ في دراستها، كنتُ دومًا أحصدُ أعلى العلاماتِ، لم أكنْ أعتبر هذا ذكاءً مطلقًا، كنت أراه أمرًا عاديًّا وأنّ كلّ شخصٍ يمكنه أن يحصل على علامتي وأن ينال رتبتي، لم أكن أقصد حينها أن أحطّ من شأني ولكن ما لم أكن أفهمه.. كيف للعقل البشريّ أن يحصل على علامة الصفر؟ وكيف للتّلاميذ في الصّفوف الأولى أن لا يحسنوا التّعبير وأنْ لا يكتبوا نصًّا إنشائيًّا جديرا بتصفيق الصّفّ وجميلا بما يجعل المعلّمة تطبع على خدّك قبلةً ستتذكّر دفئها بعد سنوات، هههه ربّما كنتُ أظنُّ أنّ هذه الطّاقة في التّحصيل الدِّراسيِّ يجب أن تكون عند الجميع، الآن كبرتُ وفهمت الكثير من الأمور، فهمتُ أنّ هذا العقل عالم غريب وأنّ هذه الخلايا العصبيّة الّتي تُعدُّ بالملايين في الدّماغ هناك منها الميّتة والحيَّة والنّائمة والّتي لم تكن لتكون أصلا، فلسفةٌ معقَّدة، نظريّات مركّبة وأمورٌ لا يستوعبها هذا العقل البشريّ، فبينما يدرس تلميذٌ في الصّفّ الابتدائيّ يوما كاملا ليحصل في آخر المطاف على علامة الصّفر أو الواحد مِن عشرة، هناك تلميذٌ مشاكسٌ لا يعود إلى المنزل إلّا ليأكل أو ليضع رأسه على الوسادة لينام، ويحصل على العلامة الكاملة بامتياز، سخريّة العقول البشريّة،

ربّما كنتُ من صنف التّلميذ الثّاني، ولذلك لا أستطيع أن أحسّ بما يحسّه أولئك التّلاميذ الّذين رسبوا وأغلبهم الآن «حيطيست» بلهجتنا الجزائريّة، والحيطيست هو ذلك الشّخص الّذي يعشق الجدار، وربّما كانت هناك علاقة حبٍّ بينهما لا يفهمها سواهما، الحيطيست مشتقّة من الحائط، وكلّ مَنْ لا يجدُ عملاً يتّكئ على الحائط.. يراقب المارّة، يراقب السّماء، يراقب الأرض، يراقب ظلّه ويتأمّل مصيره الّذي رسمه بيده، لا أدري لماذا أتحدّث عن التّلاميذ في المدارس الابتدائيّة.. ربّما لأن الطّفولة لحدّ الآن لا تزال متربّعة على عرش أفكاري ولا يمكنني نسيانُها أبدا، في تلك الفترة الجميلة لم يكن لنا همٌّ سوى الدّراسة.. لم يخالط قلوبنا الماسيّة الصّدأُ ولم نكن نعرف شيئا سوى البكاء عند استقبال علامة الصّفر، أتحدّث بلسان جماعة الحيطيستّ في صغرهم، لأنّي لم أذق طعم الصّفر، وربّما لو تذوّقته لحللتُ لغزا مِن ألغاز هذا العقل الّذي لا يزال يؤرّقني لحدّ اليوم، لدرجة أنّ هذا الفضول دفع بسعاد لاختيار تخصّص الأمراض العقليّة...

ما أذكره في الصّفوف الأولى من الدّراسة أنّ أبي كان يوصلني إلى المدرسة كلّ يوم، لم تُتحْ لي قطّ فرصةُ الذّهابِ لوحدي، كان يوصِلني يوميًّا وكنتُ أشعر بالفرح والأمان بجانبه، كم كان أبي حنونا، كانت أمّي تقول له: اترك الفتاة تذهب بمفردها لتتعلّم الاعتماد على نفسها كغيرها من البنات، لم يكن أبي يلقي لكلامها بالا، كان ينظر إليّ بابتسام ويقول: أنذهب إلى المدرسة؟ فأردّ عليه بفرح نعم

نذهب، نذهب.. كم أفتقدك يا أبي، الآن لا أحد يوصلني إلى محطة أحلامي كما كنت تفعل، أصبحت الوجوه شاحبةً في غيابك يا أبي، كم أحنّ إليك، الآن أتمنّى لو يعود الزّمن إلى الوراء فقط لآخذ معك صورةً تذكاريّة، كم أنتِ قاسية أيّتها الحياة، لماذا لم تخبريني أنّك ستأخذين أبي وتهربين به نحو عالمٍ أخاف حتّى من التّلفّظ باسمه "الموت"؟ لو أخبرتني كنتُ التقطتُ مئات الصُّور معه، كان اليُتم الّذي عشتُه في سنّ العاشرة أكبَر ألمٍ في حياتي، لا أزال أستشعر تلك المرارة في جوفي كلّما ذكَرتُه وكلّما هبّ النّسيم حاملا عطره منْ مقابرِ الوجع، نمْ بسلامٍ يا أبي أنا الآن ذاهبةٌ إلى جبل الوحش.

ذاهبةٌ إلى هناك، أنا طبيبةٌ الآن يا أبي، أعرف أنّك كنتَ تحلم بأن أحقّق لك هذا الحلم، غدا سأبدأ العمل، ستكون حاضرًا معي يا حبيبي، سأكتب لك كلّ يومٍ رسالةً وسأحكي لك في مذكّراتي عن آخر المغامرات الّتي خُضْتُها، رغم أنّني لا أظنّ أنّني سأغامر، لا أزال جبانةً يا والدي ولا تزال الدّموع تنهمر كلّما ذكرتُك، أشعر بصقيعٍ في روحي يذكّرني بيُتمي ويحاول أن يجعلني أعترف بالعجز أمامه، أبي لا تزال سعاد فتاةً مجنونة، لكنْ لم يصبني التّوحّد الّذي كنتَ تخاف عليّ منه، بالعكس أنا اجتماعيّةٌ جدًّا حسب ما يقال عنّي، لكنّني مع كثرة الأصدقاء مِنْ حولي لا أجد أحدًا أثق به لأحكي له سرًّا ما، تتراكم هذه الأسرارُ في هذا القلب، وكلّ يومٍ أصاب بإحباطٍ ولوعة أكتمها، أتعمّد بلعها مِرارا، لكي لا أتلفّظ مرارةَ الخيبة أمام النّاس، نعم لا أزال أخاف من النّاس، منذ أن تَرَكْتَنَا لم تجفّ دموع أمّي، هي تتفنّن في

طقوس البكاء كلّما ذَكَرتُك، أشعر أحيانا أنّها تتلذّذ به، في هذا العالم الّذي ما عادت اللّذّةُ جزءًا منه، كلّ ألواننا أصابها الشّحوبُ، هه أتعرف يا أبي ؟ كانت أمّي مع حبّها الكبيرِ لك تلعنكَ صباحًا ومساءً وتعود تستغفر الله وتسأله أن يرزقك الجنّة، كانت تنظرُ إلى صورتك المعلّقة على الحائط الحزين وكأنّه أعدّ نفسه مسبقًا لاستقبال الألم، وتبدأ بالسّبّ والشّتم، وهي تبكي، تقول لك : لماذا يا "رابح" تركْتَنا؟ لماذا لم تحسن اختيار الوقت المناسب أيّها الوغد؟ على الأقلّ كنتَ أخبرتَني؟ ألا ترى أنّني الآن امرأةٌ أرملة لا حول لها ولا قوّة؟ وكنتَ لمّا تزوّجتَني وعدتَني أن تنقذني من الحزن الّذي كنتُ أعيشه مع زوجة أبي وأن تعوّضني على ذلك اليتم العميق الّذي لا أزال أتجرّعه بعد غيابك، لماذا يا رابح؟ ألا يقال بأنّ العشّاق لا يخلفون الوعود؟ أنت أخلفْتَ كلّ وعودك.. لم تمنحني السعادة الّتي أغريْتَني بها، حتّى هذه الطّفلة الّتي تركتَها من بعدك، أخذَتْ كلّ ملامحك، هي لا تشبهني في شيء، تشبه فقط هذا الحزن الّذي كان قابعا منذ الأزل في عينيك وساكنًا في روحك.

عندما كنتُ أتأمّل السّيناريو الّذي كانت أمّي تتفنّن فيه كلّ يومٍ مع الصّورة والجدار لم أكنْ أفهم، كنتُ حينها صغيرةً لأستوعب هذه الأمور، ما كنتُ أعرفهُ فقط أنّ أبي ذهب إلى الجنّة كما كنتُ أسمعهم يقولون، الآن أفهم جيّدا ما كانت تعانيه أمّي، هي صدمة ما بعد الفراق الأبديّ، عندما نفقد عزيزًا تختلف ردود أفعالنا، هناك من يبكي، هناك من يشقّ الجيوب، هناك من يصمتُ إلى الأبد، هناك

من يضحك بجنونٍ وهناك من يتعبّد الذّكرى كما كانت أمّي تفعل..

كنّا نعيش في أحد منازل قسنطينة العتيقة في حيّ القصبة، كان منزلا قديما جدًّا ذا ثلاثة طوابق وكان على وشك الانهيار، لكنْ لم يكنْ ملكًا لنا، بل كان مشتركا بين عشرات العائلات، بعد الاستقلال وخروج المعمّرين أغلب سكّان الأرياف نزلوا إلى المدن بحثا عن منازل هناك، وحدث شغبٌ كبيرٌ واستطاع جدّي أن يحصل على غرفة في هذا البيت الأشبه بالكهوفِ المقفرة، لكنّه سرعان ما عاد للرّيف، بعد أن تُوفّيتْ جدّتي أحسّ جدّي بالذّنب، كان يظنّ أنّه سببُ موتها، لطالما كانت تقول له دعنا نعود إلى الرّيف، لا أستطيع العيش في قفص دجاج، هذه المدينة الصّاخبة ستقتلني حتما، كان جدّي يكابر، فهو لم يحبّ المدينة يوما، لكنّه كان يعاند لِئلاّ يقال أنّه اتّبع رأي زوجتِه، كم كان تفكيرهم غبيّا وجامدا، بعد أنْ توفّيتْ جدّتي عاد جدّي إلى الرّيف، ولم يكن له من الأبناء إلّا أبي وعمّتي، عاد بهما إلى الرّيف وترك تلك الغرفة الباردة تحت رقابة أحد الجيران هناك، عمّتي تزوّجَتْ صغيرةً، بمجرّد عودتها إلى الرّيف زوّجها جدّي، الآن هي جدّة، ولولاها لما عرفْتُ الكثير من هذه القصص الّتي تأبى أمّي أنْ تفاتحني في تفاصيلها، أما جدّي فعاود الزّواج ثمّ طلّق زوجته وأكمل حياته عازبا إلى أن تُوفيّ، لم تغادر صورةُ جدّتي خياله يوما، لقدْ كانت أجمل نساء الرّيف وأحلاهنّ وكان الكلّ يضرب بها المثل فيقال مثل "قمير"، والدي بعدما تحصّل على شهادة الابتدائيّ اضطرّ جدّي إلى أن يرسله إلى المدينة ليكمل تعليمه هناك، وعاد والدي إلى تلك

الغرفة الباردة بحيّ القصبة بقسنطينة، جدّي كان يتفقّده بين الحين والآخر وكان أوكلَ العناية به لنفس الجار الّذي كان يتفقّد أحوال الغرفة في غيابه، أكيد لم يكن ذلك لوجه الله، حيث أنّ جدّي كان يكرمه كلّ مرّة، ويحضر له بعضًا من محاصيل الرّيف كزيت الزّيتون والّذي كان يُعتبر ثمينا ولا يزال كذلك..

مرّ الوقت سريعا، أكمل والدي دراسته بعيدا عن والده، عاش يُتما وألما، وفقرا، تحصّل على البكالوريا، بعد جهدٍ وتعبٍ وسهر، كان عاشقا للعلم والدّراسة، في مرحلة الثّانوية لم يكن جدّي يرسل إليه شيئا، لأنّ والدِي بدأ بالعمل في ساعاتِ فراغِه، يعملُ في كلّ النّشاطات الّتي يجدها، فقط ليحصل على مالٍ يكفيه، كان يحبُّ الاعتمادَ على نفسِه ويرى في ذلك فرَحا وسعادة، بعد حصوله على البكالوريا أصابت والدي نوبةُ فرح ودوار سعادة، لم يجد في ذلك الوقت من يقاسمه تلك الفرحة، خصوصا أنّ النّجاح في ذلك الوقت كان صعبا وأنّ النّاجحين كانوا قلّة وكلّهم يحصلون على مناصب عملٍ مرموقة، ذهب واشترى الكثير من الأكل والملابس لجدّي وعمّتي، وقام بكراء سيّارة إلى الرّيف، وعند وصوله إلى الرّيف -وكان وجهه يرسم تقاسيم السّعادة المجنونة- فوجِئ بجمعٍ غفير من النّاس يحملون نعْشًا، كان نعشَ والده، منذ تلك اللّحظة لم يعد لوالدي ما يسعده في هذا الوجود، كم كان القدر مؤلما له، كان يبني مشاريع وأحلاما، كان يريد ابتعاثَ والده إلى الحجّ، ها قد تُوفيٍّ ولم يمنحه تبريكات النّجاح، ولم ينظر في عينيه لآخر مرّة، وداعًا جدّي، أتعرِفُ أنّ

أبي أيضا تُوفيّ؟ إنّه الموت يأخذ منّا أحبّاءنا ويتركنا للبرد والصّقيع.

أبي عاد إلى المدينة، أصبح يعمل في إدارة أحد البنوك، تزوّج أمّي الّتي لم تقصّ عليّ لليوم كيف تعرّفا على بعضهما، هما شخصيّتان معقّدتان ومع ذلك استطاعا أن يشكّلا ثنائيًّا، لكنْ سرعان ما فرّقهما القدر، بعد عامٍ مِنَ الزّواج جاءتْ سعاد إلى هذه الحياة، وعندما صار عمري عشر سنوات تُوفيّ والدي في حادث سير، توفيّ وتركَنا في تلك الغرفة الباردة الّتي كانت شاهدةً على موتِ جدّتي وجنازةِ أبي وطيف جدّي الرّاحل.

رغم أنّ أبي كان يعملُ جاهدًا ليشتري بيتًا في مكانٍ ما مِنْ هذه الأرض، بعد وفاته رَفَضَتْ أمّي أن ننتقل إلى أيّ منزلٍ آخر، وكأنّه أصابها الزّهد بعد رحيله، لم يكن أبي ممَّنْ يتركون أموالهم في البنوك، وبالتّالي بعد انقضاء مدّة العدّة قَصَدَتْ أمّي سوق الذّهب، كانتْ تؤمنُ بمقولة «الحدايد للشّدايد»، وهي تعني بلهجتنا أنّ الذّهب يمكنه أن يحلّ الأزمات في المستقبل، عمّتي بعد وفاة والدي لم ترض أن تحصل على أيّ شيءٍ، وأصلا أمّي لمْ تكن لتعطيها شيئا، صارت تكره كلّ ما يذكّرها بوفاة والدي، أمّي الآن تتقاضى راتبا شهريًّا ليس بالكثير، لكنّنا استطعنا أن نعيش حياةً كريمةً، لم نحتجْ فيها لأيّ أحد، بين الحين والحين كان يزورنا بعضٌ من أخوالي، في أغلب الأوقات يأتون بأيدٍ فارغة، الكلّ أصبح يشتكي غلاء المعيشة، يمكثون برهةً ثمّ يرحلون والآن لم نعد نراهم إلّا في المناسبات والأعياد.

هوسٌ اكتئابيّ

رنّ منبّهُ السّاعة السّادسة، كم اعتدتُ على الكسَلِ هذه الأيّام، نسيتُ أنّ اليومَ هو أوّل يومٍ لي في العمل، صباحٌ باردٌ مِنْ شهرِ أكتوبر، صباحُ الخير أيّتها الأزقّة القديمة والشّوارع الّتي لا تزال تكتسي ثوب الحداد منذ الاحتلال إلى الآن.. ولا تزال العجائز في هذه المدينة العتيقة يخفين ملامحهنّ وما ترك الدّهر من أخاديد على وجوههنّ في هذه الملاءات السّوداء.

صباح الخير، صباحٌ يفوح برائحة القهوة القسنطينيّة المجنونة، الّتي تذكّرني وأنا أرتشف بعضها بأنّني وبعد ساعات سأكون في جبلِ الوحش، آه أيّتها المدينة، أتعرفين أننا نشبه بعضنا كثيرا ؟ أنت لم تختاري يوما أن تكوني معلّقةً بين الأرض والسّماء، وأنا لم أختر يومًا أن أعيش معلّقة في هذه الغرفة الباردة، لكنّنا سعيدتان بقدرنا، فبينما تحسدكِ المدن في الجزائر على حسنكِ الّذي وصل صيتهُ إلى العالم، وتحسدكِ مدن العالم لأنّك أجمل مدينةٍ مبنيّة على صخرة، تحسدني الكثير من فتيات الحيّ على مهنة الطب، هههه الآن يا قسنطينة صرن يقلن لي : ألمْ تجدي مهنة تختارينها إلّا طبّ المجانين؟

صباح الخير، أيّتها الجسور الّتي لا أدري للآن إن كانت تمدّ حبالها لتعانقني أم لتلفّ حبل المشنقة على روحي وأحلامي؟

أغلقتُ النّافذة، كنتُ أرى أمّي وهي نائمة تبدي استياءً من لسعات البرد الّتي تندفع من الأفقِ المتجمّد، وأكملتُ مُناجَاتي الصّباحيّة مع ذلك الرّجلِ الوسيمِ الأسمر، حرامٌ أن يحبسَ ملامحَه ذلك الإطارُ الخشبيّ وأنْ تُختصرَ ملامحُه الرّجوليّة في ابتسامةٍ عابرةٍ وأنْ يصيرَ بعد ربعِ قرنٍ على وفاتِه تحفةً فنّيّةً معلّقة على جدارِ هذه الغرفة تماما مثل تلك الجسور المرتعشة، كلّ شيءٍ في هذه المدينة مُعلَّق، نعلّق أحلامنا وطفولتنا لأنّنا لم نستطع أن نعيشها كما يجب، أو ربمّا لأنّنا أردنا ذلك، نعلّق معاطفَنا الشّتويّة ونرفضُ ارتداءَها في عزّ البرد، فقط لكي نعاقبَ أنفسَنا قليلا أو ربمّا لنتلذّذ بذلك، نعلّق أرواحنا على أمل فسحة من الحياة ودفقة من الشّهيق الدّافئ، هه أرأيت يا أبي؟ صِرتُ أناجي صورتك مثلما كانت تفعل أمّي في الأعوام الأولى مِنْ رحيلك..

هههه أراني أحدّث نفسي، لم أفِقْ إلّا على صوتِ فارحة.. هذه المرأة الحنون، لقد كانت أمّي، وضعَتْ يدها على كتفي وقالت لي: « تناولي فطورَك قبل ذهابك. «، لا أدري متى استيقظتْ وكيف جهّزَتْ الإفطار، ورغم أنّ كلّ هذا كان يدور في غرفة واحدةٍ لم أنتبه.. أمّي الحبيبة، شكرا لأنّك في حياتي، ولأنّك لا تزالين تحترفينَ التّفاؤُل وتستعيرينَ الفرحَ من الكون لتُرجعيه إلى الحياة بحجمٍ مضاعف، ولا

عجبَ يا حبيبتي.. أوَ ليس اسمك فارحة؟

أنا ذاهبة يا أمّي، دعواتك...

- انتظرِي، لا تذْهَبي، حتّى تشربي قليلا من ماء الزّهر مع السّكّر.

كانت هذه عادة قديمة نتفاءل بها قبل اجتياز امتحانٍ أو الشّروع في أمرٍ جديد كالعمل أو الزّواج، ورغم علمنا أنّها لا تضرّ ولا تنفع إلّا أنّنا كنّا نؤمن بأنّ لها مفعولا ما، هههه تناقضات جميلة..

وأنا أنزلُ السّلالم كنتُ أرى أمّي وهي تراقبني وتدعو، إلى أن خرجتُ إلى شارع الحيّ، وكنت أدري يقينا أنّها ستظلّ واقفةً طويلا كما تركتُها لتطيلَ الدُّعاء ولتَشعر أنّ بركاتِها تلاحقني أينما حللتُ، كنتُ أحمل حقيبةً وضعتُ فيها أوراقا ودفاترَ وبعضًا منَ الأقلامِ وملفًّا طُلب منّا إحضاره، وأحمل في اليد الأخرى مطريّة، لم أُطل النَّظرَ في المِرآة حالَ خُروجي، لم أكنْ أحبُّ المرآةَ مطلقا، كُنتُ فتاةً سلفيّةً علَى حدّ قولِ الجيران وصديقاتي ووالدتي، هنا لا أحدَ يفهمُ كلِمة السّلفيّة، لكنّ الكلّ يستعملُها، ما كنتُ أعرفه وأؤمن به أنّي فتاةٌ دينُها الإسْلام وكنتُ أرى حِجابي شيئاً مقدّسا وأمرًا جميلا أحبّه، هه كانت أمّي تقول لي دوما تبدين أكبر بقليلٍ مِنْ عمرك، ربّما لأنّني كنتُ أبحثُ دوما عن حجابٍ فضفاض وذي لونٍ داكن، كان الأسودُ يغريني دوما، كنتُ أحبّ هذا اللّونَ ليس لأنّني متشائمةٌ كما يقول الكثيرون ممّن يجهلون فنون اللّون ودلالته، بل ربّما لأنّني مميّزة كما قال لي ذات يومٍ

"مينارد"، أجدُني في هذا الصّباح أتذكّرُ مينارد، لا أدري لماذا.. أتمنّى أن يكون بخير.

مينارد طالبٌ كان يدرس معنا في كليّة الطب بحي الصّنوبر، والّتي تحمل اسم طبيب الأمراض العقليّة «اسماعيل بلقاسم»، مينارد كان مِنْ تنزانيا، وكان يدين بالمسيحيّة، لم أرَ في كل حياتي إنسانا متخلّقا ومحبًّا للعلم مثله، لقد كان كاثوليكيّا مقدّسا لديانته لدرجة أنّه كان بين المحاضرات يرتاد كنيسة الرّاعي الصّالح "BON PASTEUR" المتواجدة في قلبِ الجامعة، كنّا أنا ومينارد وصديقتي المقرّبة "شناز" ومحمّد -طالبٌ سوريٌّ معنا- ندرس سويًّا، كنّا مجموعة جميلة، كنّا نُعتبرُ رباعيًّا غريبا، لا أحد يشبهُ الآخر ولا أحد يتقاسم الميُولات مع الآخر، حتّى أفكارُنا ومذاهبُنا وديانتنا كانت تختلف، قالت لي ذات مرّةٍ إحدى الطّالبات: «أنت متناقضة يا سعاد، لا أفهم لماذا ترتدين هذه القطعة السوداء وتظلّين مع هذه الجماعة الّتي لا تمتّ للدّين بصلة..» هه ما أذكره حينها أنّني ابتسمتُ فقط، كنتُ أعرف ما يقال عنّي وأدرك تماما ذلك، لم أكن آبه، حتّى فارحة عندما شكوتُ لها ذلك قالت: «ابتعِدي عنهُم أو البسي شيئًا غير هذه العبَاية الغربانيّة.» لا أحد يفهمك هنا، الكلُّ يستطيع إدانتك وتقفُ كالمتفرّج في مسرحيّة لم تكن تدري بأنّ لك دور الجاني فيها، لكنّه صار دورَك وانتهى الأمر، «شناز» كانت ابنة مدينة غرداية الجزائرية مِنْ بني ميزاب، لم تكن متحجّبة، كان لها جمال مبهرٌ وقلب مِنْ ذهبٍ، كنتُ أعتبرُها صديقتي المقرّبة، وبالفعل سبع سنوات معًا لم أشعر

يوما أنّ هناك فجوة ما بيننا، شنازْ تزوّجتْ مِن رئيسِ قسم جراحة الأعصاب في مستشفى مصطفى باشا بالعاصمة، لم يكن ميزابيًّا، كان عربيًّا بمفهوم أهلها في غرداية، لكنّها استطاعتْ أن تفرض رأيها وأن تتزوّجه، كم كانت عنيدة، لكنّها لحدّ الآن لا تزال تمرُّ بمشاكلَ مع عائلتها، في آخر مكالمةٍ لي معها قالت أنّها ستتوقّف عن العمل مؤقّتا لتربيّ ابنتها..

محمّد كان يقطن بريف يسمى «الشّعلان» في ضواحي مدينة دمشق كما كان يقول، لكنّه وبعد الحرب والخراب الّذي طال سوريا وبعد مقتل والده وأخيه ذهب إلى لبنان حيث كان يسكن أخواله وحيث انتقلتْ أمّه وأختاه، وهو الآن طبيب عامّ بمستشفى رفيق الحريريّ الجامعيّ.

«مينارد» عاد إلى تنزانيا، لبيته في دار السّلام، هو الآن يعمل بمستشفى «كونسولاتا لكوندا»، الأمر الّذي مازال يُحزنني كلّما تذكّرتُه هو أنّنا لم نستطعْ أن نغيّر فكرته المشوّشة حول الدّين الإسلاميّ، يا الله كم كان مقتنعا بأفكاره متمسّكًا بها لدرجةِ أنه كان يضحك كلّما أردنا أن نفاتحَه في هذا الموضوع، كان يقول أنّه لو كان بإمكانهِ لفتح مدرسةً تبشيريّة هنا في الجزائر، أذكر حينها أنّنا لم نعد نتكلّم معه مطلقا في ما يخصّ العقائد والدّيانات، فوحده الله قادرٌ على هداية مَنْ يشاء مِنْ خلقه، فلنتركِ الدّعوة إلى الإسلام لأهلها مِنَ المشايخ.. كيف سيهتدي مينارد إلى دين الرّحمة والسّلام -وهو يرى أغلب

المسلمين هنا وفي كلّ مكانٍ على وجه الأرض لا يعبّرون عن الإسلام الّذي يدّعون ولا عن هويّتهم وتاريخهم-؟ وكلّيّة الطّبّ وحدها أفضل مثال على ذلك، هههه أحيانا كنتُ أعتقد أنّني أدرس في باريس، لا ينقصُنا إلّا علمٌ فرنسيٌّ في قلبِ الجامعة، ليست الدّراسة فقط باللّغة الفرنسيّة، بل أغلب الطّلاب في الكلّيّة يحترفون المباهاةَ بهذه اللّغة ويعتبرون مَنْ لا يتقنها إنسانا منَ الدّرجة الثّالثة، أمّا الأمرُ الآخر الّذي كان يُزعجني ولا يزال، ربمّا لأنّ لي عقليّة سلفيّةً كما تقول فارحة، هو حجابُ المصّاصة كما كان يسمّيه محمّد، خمارٌ يُلفُّ على الرّأس وسروالُ جينز، لم أكن قطُّ أحبّ انتقاد النّاس وأساليب حياتهم الّتي اختاروها، لكنّي بصراحةٍ كنتُ أمقتُ منظر المصّاصات في الكلّيّة، بقدر ما كنتُ أحترم الحجاب الشّرعيّ وأتمنّى التّحجّب للفتيات الأخريات، وأكبرُ دليلٍ على ذلك أنّ صديقتي "شناز" لم تكن متحجّبة. أفهم جيّدًا الآن لماذا عاد مينارد إلى دار السّلام مِنْ غير إسلام، هه ربمّا أصابتْهُ صدمةٌ قويّةٌ في المفاهيم.

كونوا بخير أينما كنتم أصدقائي، أشتاق إليكم جدًّا، أعرف أنّ القدرَ اختار لكلٍّ منّا طريقه، ورغم أنّنا لا نزال نتواصل عبر هذه المملكة الزّرقاء الّتي تسمى فايس بوك وعبر غيرها من وسائل الاتّصال فأنا لا أزال أحنُّ إلى أيّامنا القديمة، وتغمُرني الرّغبةُ في البُكاء، دوموا بألف خيرٍ أيّها الحكماء، أنا ذاهبة الآن إلى مصحّة جبل الوحش، عندما كنّا طلّابا في السّنة الخامسة أجْرينا تربّصا هناك، لم أخبر أحدا منهم عندها عن رغبتي في اختيار طبّ الأمراض العقليّة، وبعد نجاحي في

امتحان التّخصّص وحدهم أصدقائي مَنْ شجّعوني وتفهّموا رغبتي، حتّى أنّ محمّدا قال لي : « أعرف أنّني سأنهي حياتي مجنونا ولذلك منَ الآن أيّتها الحكيمة احجزي لي عندكم غرفة وانتظريني، فقط أتمنّى أن لا تموتي إلى ذلك الوقت».

أسير في هذا الشّارعِ الّذي لا تزالُ طرُقُه تحتفظُ بملامحها القديمةِ منْ أيّام الاستعمار الفرنسيّ، لا شيءَ تغيّر في هذه المدينة منذ حقبةٍ بعيدة، توالتْ عليها الحضارات والكلّ يتركُ بَصْمتَه علىَ صخْرِها العتيق ثمّ يرحلُ مُكرهًا، أسيرُ في هذا الشّارع البارد، السّماء ملبّدة بالغيوم، تنبؤ عن أمطار قادمة، السّاعة كانت السّابعة واليوم كان الأحد مِنْ شهر أكتوبر لِعام 2013، اعتدتُ الذّهاب سيرًا على الأقدامِ إلى كلّيّة الطّبّ. لم يَكن حيّ الصّنوبرِ يبعدُ كثيرا عن حيّ القصبة حيثُ كنتُ أقطُن، ورغمَ وجودِ حافلات نقل الطّلاب إلّا أنّني كنتُ أفضّلُ المشيَ وأعتبره رِياضَتي المفضّلة، كنتُ أشْعرُ كمَا لو كنتُ شاعرةً وأنا أسير على جسر «سيدي راشد»، كانت تختلجني مشاعرُ حزينةٌ وأخرى سعيدة، عالم من التّناقضات الوجدانيّة، وأحسّ أنّ هنالك شيئًا ما في داخلي يأمُرني بالصّراخِ، بالغناء، بأمورٍ مجنونة، كانَ الجِسرُ يُخيفُني بقدرِ ما أحبّه، لأنّنا كلَّ أسبوعٍ تقريباً نسمعُ أنَّ أحدًا ما ألقى نفسه مِنْ هذا العلوّ، والأغربُ مِنْ ذلك أنّهم يأتون مِنْ أماكن بعيدة، وحتّى مِنْ خارج قسنطينة فقط ليضعُوا حدًّا لنبضاتِ قلوبِهم، بصراحة لمْ أشهدْ كثيرا من هذه المواقف، لم أشهدْ إلّا مشهدًا واحدا لا يزال محفورًا في ذاكرتي لدرجة أنّني كلّما اجترتُ

الجسرَ أحسُّ بقشعريرةٍ تنتابُ كاملَ جسَدي وأشْعرُ بالدُّوارِ، كانَتْ فتاةً في مُقتبلِ العُمر، ترتدي تنّورةً حمْراء وتضعُ شالا أخضرَ تلفُّ به عنُقها، أذكرُ أنّ ذلك كان في يومٍ خريفيّ، كانت تحمل حقيبةً سوداء صغيرة، وتنتعل حذاءً ذا كعبٍ عال، تسيرُ ثم تتوقّفُ وكأنّها تحاول مراجعة شيءٍ ما في داخلها، أو ربّما كانت تُصغي إلى الأصواتِ المُنبعثة من قلبِها وعقلِها، لا أدري لماذا لفتَتْ انتباهِي يومَها رغمَ أنَّ الطّريقَ كانَ يعجُّ بالمارَّة، عندَ وصولِنا إلى الجسرِ فوجئتُ بأنّها نزعتْ حذائها، تركتْ حقيبتَها جانبًا، نظرتُ إلى أسفلِ الجسرِ، نظرتُ إلى الأعلى، نظرتُ إليها بدهشة وخوف، نظر كلُّ مَنْ كان في الجسر إليها، صرختُ، صرخ كلّ مَنْ كان هناك، حاولوا منعها، لكنَّ الوقتَ كان قد تأخّر، ألقتْ بنفسِها ، لمْ نستطع أن نفعل شيئًا، كانَ قرارُ الموتِ لا رجعةَ فيه، كم تألّمتُ ذلكَ اليوم، لم أقدر أن أنظرَ إلى أسفلِ الجسرِ لأرَى تلكَ الجثّة الّتي كان المواطنونَ يتسابقون عنْ فضولٍ لرؤية تقاسيمِ الموتِ عليها.. على ذلك الجسدِ الجميل، لم أقدرْ، بكيتُ ثمّ أكملتُ طريقي، لكن ما لم أفهمه لليوم، لماذا نزعتْ حذاءها وتركتْ حقيبتها؟ حتّى في لحظات الموتِ الأخيرة، تجهّز النّساءُ أنفسهنّ، انتحرتْ حافيةَ القدمين، خاليةً منْ أثقالِ الحياة ومنْ بروتوكولات الدّنيا، تركتْ حقيبةً بها كلّ الوثائق الّتي تثبتُ هويّتها، خطّطتْ لكلّ شيءٍ قبل انتحارها، لكيلا تُتعبَ مَنْ حولها بالبحث عن التّفاصيل، لا يزال النّاس ينتحرونَ في هذه المدينة وفي كلّ مدن العالم، هناكَ منْ يلجأُ إلى الجسور وهناك مَنْ يذهبُ إلى سكك

الحديد، والبعض ينتحرُ تدريجيًّا بمعاداة الحياة، آه، في ذلك اليوم لا يوجد بيت قسنطينيٌّ إلاّ وكانت الفتاة المنتحرة فيه قضيّة السّهرة الّتي يتناقش بشأنها أفراد العائلة، ليس نقاشا لأجل إيجاد حلٍّ، بل كانت اجتماعاتٍ تافهة، الكلُّ يُدلي بفتوى، الكلُّ يظنُّ نفسَه إمامًا على أفعال النّاس، يوزّعون بطاقات الجنّة والنّار على النّاس، لا أريد أن أتذكّر....

أسيرُ في هذا الشارع، أسير وفي كلّ خطوةٍ أتذكّر أمورا وأتناسى أخرى، هذه المرّة لستُ ذاهبةً إلى حيّ الصّنوبر، لذلك لن أمرَّ عليك يا جسر سيدي راشد، ربمَّا لي معك ميعادٌ آخر لكنْ ليس اليومَ، أنتَ تُذكّرني بالموتِ ولذلك فلنفارقْ بعضَنا قليلًا، ربمّا سأحبّك أكثر، وسأشتاق إليكَ وسأمرُّ عليك ذات دقّةِ قلب، لن أمرَّ عليك لكنّني سأمرُّ على جسرٍ آخر للذّهاب إلى حيّ باب القنطرة أين أنتظر الحافلة هناك، كان جسر سيدي مسيد. كلُّ جسرٍ يحملُ اسمَ وليٍّ صالح، بصراحة.. أغلب النّاس هنا لا يعرف تاريخَ هؤلاء الأولياء الصّالحين وأنا واحدةٌ منهم، لا أحبُّ هذه الألقاب، أظنّ أنْ لا أحد باستثناءِ الخالق يمكنه معرفة الصّالح من الطّالح، ولا يعلم ما في القلب إلّا ربُّ القلوب، فلماذا كلُّ هذه التّسميات والألقاب؟ ومع ذلك أنا أحبّ جسرَ سيدي مسيد، إذْ لا تربطني به علاقة خوفٍ أو رهبة، أصلُ إلى المحطّة، أقف هناك، السّاعة تُشير إلى السّابعة والنّصف، تأخّرَتِ الحافلة، يُشعرني الضّجيج هنا برغبةٍ في أنْ أكون صمّاء لبرهةٍ منَ الزّمنِ كي لا يُصيبني هذا التلوّث السّماعيُّ، أشعرُ بالبرد، هذا المعطف

الَّذي أرتديه لا يحمي مِنَ البرد بقدرِ ما يُشعرني بأنَّني مقيّدةٌ، أنتظرُ الحافلة، أتظاهر بالصّبرِ الَّذي يَنقُصني كثيرًا في مثلِ هذه المواقف، كانتْ تقفُ على يميني امرأةٌ عجوز، وعلى يساري امرأةٌ تحملُ رضيعًا في يدِها، نظَرَتْ إليّ المرأة العجوز وكأنّها تتفحّصُ شيئًا ما.. لم أعرفْ ما هو بالتّحديد، نَظَرَتْ طويلا، تأمّلَتني بصمتٍ ثمَّ قالتْ:

-لا تقولي لي بأنّك تدرُسين في المدرسةِ القرآنيّة عبد الحميد بن باديس ؟ لقد رأيتكِ هناك.

- لا.. أنتِ مخطِئة يا سيّدتي، لا أعمل هناك..

- وإذا كنتِ لا تعملين هناك، أين تعملين إذن ؟ أنا واثقة أنّني رأيتكِ هناك.

أشعر برغبةٍ في الصّراخ، تمالكتُ أعصابي ورددتُ عليها:

- ربمّا التبَستْ عليكِ الأمورُ فقط، أنا طبيبة.

- تبارك الله، ما شاء الله، وأين تعملين يا ابنتي ؟

- أعمل بمصحّة الأمراض العقليّة.

-يعني «طبيبة تاع مهابيل» ولماذا يا ابنتي ؟ لو كنتُ في مكانك لبقيتُ في المنزلِ ولكان ذلك أفضل.

أشعرُ الآن في رغبةٍ في البكاء، أهذا ما ينقُصني ؟ في بداية النّهار

تأتي هذه الكتلة مِنَ الطّاقة السّلبيّة لتُفْسدَ مزاجي، حاولتُ التّحكّم في أعصابي، لمْ أتكلّم، لكنَّ العجوزَ لمْ تصمُت، وعنْدمَا لمْ أُجبْها التفَتَتْ إليّ وقالتْ : أظنّكِ أنتِ أيضًا يَلزم أنْ تعالجي هناك.

هههه، سبحان الله، هُناك أُنَاس يحترفونَ النّكد، لكنّني لا ألومها، ربّمَا تعرَّضَتْ إلى حزنٍ كبيرٍ في حياتها أو إلى صدمةٍ ما جَعَلَتْ كلّ جميلٍ يبدُو قبيحًا في نظرِهَا، ومثلُها كثيرٌ، لو كانَ الأمر بيدي لحاولتُ معالجتهم، فهؤلاء أيضا مرضى والفرق بينهم وبين أولئك الّذين سأزورهم الآن في جبل الوحش أنّهم يُنكرون مرضهم ويحاولون تغطية عيوب أفكارهم بالاستهزاء بمَنْ حولهم..

المرأة الّتي كانت تقفُ إلى جانبي لم تتكلّم حين كانت العجوز تُملي عليّ قواعدَ السّلوك والتّحضّر، لكنّها بمجرّد انصراف تلك الطّاقة السّلبيّة الْتَفَتَتْ إليَّ وقالتْ:

- أيّتهَا الحكيمة... تعملين في مصحّة «محمود بلعمري»؟

- نعمْ، بصراحة لم أعمَل هُناك بعد، سيكونُ اليوم أوّل دوامٍ لي.

تنهَّدَتِ المرأةُ ثمَّ نظَرَتْ إليّ وقالتْ:

- زوجِي يُعالج هناك، أتمنّى أيّتها الحكيمة أن تهتمّي به.

قالتْ هذا ثمّ انفجَرَتْ بالبكاء، سألتُهَا:

- ممَّ يعاني؟

- يُعاني مِنَ الذُّهان الهوسيِّ الاكتئابيِّ وهو هناك منذ أسبوع.

لم أجدْ ما أقول لها، لم أذهبْ بعدُ إلى المشفى، لم أحتكّ بالمرضى وليس لديّ دراساتٌ معمَّقَةٌ في هذا النَّوع مِنَ الاضطرابات العقليّة، حاولتُ أنْ أخفِّفَ مِنْ هذا الحزنِ الَّذي يعتريها ويسكنُ عينيها، أشفَقْتُ عليها، كانت تحمل رضيعا ولا أدري إنْ كان لها أطفالٌ آخرون، لكنّها قطَعَتْ ما كان يدورُ بعقلي مِنْ أفكارٍ لتُخبِرَني أنّها أمٌّ لأربعةِ أطفالٍ آخرين، ثمَّ انصرَفَتْ وفي عينيها حزنٌ استَطَعْتُ أنْ أُلامسَ مدى عمقِهِ وقسوتِه.

جاءت الحافلة، وبدأت رحلتي إلى هناك، إلى مصحّة "محمود بلعمري"، في الطّريق تذكّرْتُ كلام المرأة وما يعانيه زوجها، الذّهان الهوسيّ الاكتئابيّ، أو ما يسمّى باللّغة الفرنسيّة:

LA PSYCHOSE MANIACO-DÉPRESSIVE

وهو عبارةٌ عنْ مجموعةٍ مِنَ الاضطرابات السّلوكيّة، تناقضاتٌ بين حالاتِ الاكتئاب المزمن واحتقار الذّات الَّذي قد يؤدِّي أحيانا إلى الانتحار، وبين مشاعر الهوس والفرح ونوباتٍ مِنَ الضّحك والّذي قد يجعل المريض يشعر أنّ له قوَّةً جبّارةً وطاقة هائلة ويؤدِّي به إلى الشُّعور بالعظمة.

مجنون ماريانا

أيّتها الحكيمة، أظنُّكِ حكيمة، لا بل أنتِ حكيمة بالفعل، مرحبا بكِ عندنا، لا يوجد وحش هنا، الوحشُ مات منذ آلاف السّنين، هههه لكنّ المجانين لا يموتون..

الموتُ للآتين مِنْ رحم الأسى

أمّا الجنون فلا يموتُ ولا يغيب

ما هذا؟ إنّني أسمع صوتا ما يكلّمني، أحسب أنّ شخصا ما يلاحقني بهذه الكلمات، هل بمجرّد ارتدائي للمئزر الأبيض استطاعوا معرفة أنّني حكيمة ؟ حتّى عمّال النّظافة هنا يرتدون المئزر الأبيض.. حتّى أنّني لا أحمل أيّا من الأدواتِ الطّبّيّة الّتي اعتاد الأطبّاء حملها، أنا أقف في ساحة هذه المصحّة، لا أدري مِنْ أين أبدأ، إلى أين أذهب، حتّى أنّي للآن لا أعرف أحدًا مِنَ الأطبّاء المقيمين هنا، أعرفُ أنّ رئيس القسم ينتظرني ليوقّع قبولَه لكي أستطيع بدْء التّربّص، أمّا باقي البروتوكلات فلا أدري عنها شيئا، مِنْ أيّ مكانٍ يجيءُ هذا الصّوت؟

- أيّتها الحكيمة، إن كنتِ مِنْ أولئك الّذين يستعملون الحقن والإبر الموجعة ويتلذّذون بشنّ الصّعقات الكهربائيّة على أجسامنا، يمكنك العودة مِنْ حيثُ أتيتِ، لدينا منْ أمثالك كثير.

التَفَتُّ إلى مصدر الصّوت، هنالك في الطّابق الثّالث على يمين الإدارة، تظهر ملامحُ ما خلف الشّبّاك المحكم الإغلاق، نعم إنّه شخصٌ هناك يناديني، وحسب الصّوت الّذي سمعته أظنّه رجلا، لا إله إلاّ الله، أصعد إلى الإدارة، ولا أجد نفسي إلّا جالسةً في مكتب المدير أنتظر مجيئه، وإذا برجل ستّينيٍّ يبدو على ملامحه نوعٌ مِنَ الوقَار، ربمّا لكونه أصلعَا ويَحمل نظّاراتٍ توحي للنّاظر إليه أنّه قد غرق في بحرٍ مِنَ الدّراسة والبحث لدرجة أنّه فقد شَعْرَه وضعفَتْ عينَاه، أو ربمّا هي هيئةُ كلّ منْ يعملُ هنَا، أشعرُ بألمٍ في رأسي وبدوارٍ رهيبٍ، أجدني أحدّثُ نفسي بطريقةٍ لم أعتدْها، لقد بدأ الجنون ربمّا، أنهض مِنْ مكاني لألقي التّحيَّة على ربِّ العمل كما جرت العادة منذ القدم.

- صباح الخير أستاذ، أنا الطّبيبة المقيمة سعاد سلّامي وأتمنّى أنْ...

- أعرف، أعرف، لا داعي لأن تعرّفي بنفسكِ أكثر.. اتركي ملفّك هنا واذهبي إلى قاعة الأطبّاء المقيمين، يمكنك مزاولةُ عملك منذ اليوم.

تفاجَأْتُ، حتّى أنّه لم يَردَّ التّحيّة، لم يبتسمْ في وجْهي، لم يُشعرْني بالقيمة الّتي أظنّني أستحقُّها، حبَسْتُ دموعي.. فلطالمَا كنتُ أبْكي

في مثلِ هكذا مواقفَ، وقبل أنْ أخرجَ مِنَ المكتب نظر إليّ ثمّ قال:

- دكتورة سلّامي، كلّ الطّبّ الّذي درسْتِهِ سابقا لن تحتاجي إليه كثيرا هنا، هذا التّخصّص صعبٌ والمسؤوليّة هنا كبيرة، نريد منك عملا وسهرا ونشاطا.

- إن شاء الله أستاذ، أتمنّى أن أكون عند حسن ظنّكَ.

أخرجُ وأغلقُ الباب، أشعرُ الآن بالذّات برغبةٍ جارفة في البكاء، يمكنكِ البكاء يا سعاد، لا أحد يمنعك.. لا أجملَ من هذا الاستقبال للطّبيبة الجديدة، نظرْتُ إلى الرّواق، كم كان يبدو طويلا، كان يلزمني قليلٌ من الفرح لعبوره، لطالما عَبَرْتُ الجسور وطرقاتِ مدينتي الحزينة ولم أشعرْ يوما بما يختلجني الآن، هذا الرّواق المظلم لا نافذة فيه ولا منفذ، وهناك في نهايته سأجد مجموعة من الأطباء الّذين لا أعرفهم، وخارج الإدارة هنالكَ صوتٌ ما أشعرُ أنّه لا يزالُ يهتفُ باسمِي في ألمٍ وخوفٍ، حَبَسْتُ دموعي، رَسَمْتُ ابتسامةً مصطنعةً على وجْهي، لم تكن ثلاثيَّة الأبعاد كمَا اعتادتْ أن تكون، يكفي أيّتها البسمة أن تكوني ببعدٍ واحد، لن أحمِّلكِ ما لا تطيقين، ضَمَمْتُ حقيبتي إليّ، بلعْتُ حزني ثمّ مضيتُ إلى القاعة حيث أمرني الأستاذ المسؤول.

السّلام عليكم، عمتم صباحا، الكلّ كان ينظر إليّ بدهشةٍ، وبعد لحظة صمتٍ طويلة، سمعتُ ردّا للسّلام، كان يلزمني مكبّرٌ صوتٍ لأستطيع سماعه بشكل أوضح، لا علينا، لا تزال الوجوه تنظر إليّ،

أربعة رجال وثلاث نساء أو أربعة أطباء وثلاث طبيبات، للألقاب هنا قداسة، قد يغفر لك الطّبيب أن تغتابه وتتّهمه بالتّكبّر على أن تسقط في حضرته لقبه أو أن تظنّه ممرِّضا مثلا، ولحدّ اليوم لا تزال العلاقة مشوَّشةً بين الأطبّاء والممرِّضين، فالممرّض يعشقُ أنْ يناديهِ النّاس بالحكيم، والعجب الأكبر أنّه لا يصحّح لهم الخطأ بل يكمل سيناريو الكذبة الّتي صدّقها وأعجبَتْهُ، هههه، لا تزال العلاقة مشوّشةً لدرجة أنّ الأطباء ذات مرّة قاموا باحتجاج لتغيير لون بدلة الممرّض إلى لونٍ آخر، زهريّ مثلا أو أخضر، بصراحة لم يكن هذا الأمر يزعجني كثيرًا،ل قد كان الإزعاج الأكبر بصريًّا، فبمجرّد دخولك إلى أيِّ مشفى حكوميٍّ في الجزائر، تخالُ للوهلة الأولى أنّك في الحجّ، الكلّ ملتفٌّ بالبياض، والبحثُ عنِ الحكيم بينهم كالبحث عن إبرة في كومة قشّ.

مرّ ذلك اليوم كأنّه الدّهر بأكمله، دائما الأيّام الأولى في كلّ شيء تمرّ بنوع من الثّقل المزعج، استطَعْتُ في نهايتِه أن أتعرّف على زملائي الّذين يحترفون الصّمت ويعشقون الهروب من الكلمات، غالبًا ما يكون الانطباع الأوّل عن النّاس مخطئا وربمّا هُم مَنْ يرسُمون شكلاً خارجيًا لا يعبّر عَنْ مكنونهم الدّاخليّ، شَعَرْتُ بعد حديثي إليهم أنّ نوبة الحزن الّتي أشعرني بها الطّبيب المسؤول بدَأتْ تتلاشى وأنّ هناك عائلةً جديدةً لي هنا، فقط بقليل من الخبرة الاجتماعيّة وبعضٍ مِنَ الاحتكاك معهم يمكن أنْ تلج إلى قلوبهم وتعرف ما يدور في أفكارهم، فقط يجب أن نُحْسن التّعامل، خصوصًا في هذا الجبل الّذي يحمل اسم الوحش والّذي يشعرك بالوحدة ويفرض عليك أن

تبحثَ عن الأمان بمفردك.

تمرّ الأيّام، اعتَدْتُ على عملي في هذا المكان، صرْتُ كلّما أعود إلى البيت أقصّ على أمّي كلّ السّيناريوهات الّتي شهدْتُهَا والأحداث الّتي مرَرْتُ بها وأحتفظُ لنفسي بأسرار الطّبيب الّتي أقسمنا على عدم البوح بها أبدًا، في قَسَم أبو قراط يُقْسِمُ الأطبّاء بمعالجة كلّ المرضى بغضّ النّظر عن دينهم، عن لونهم، عن جنسيّتهم، نُقْسِم بمعالجة الأعداء وحتّى أولئك الّذين قاموا بإيذائنا ذات يوم، كان هذا هو قسم أبو قراط، هه لكنْ في مصحّة محمود بلعمري وفي كل مصحّات الأمراض العقليّة نطبّق قانونًا واحدا.. رُفع القلم عن المجنون، فعندما يغيب الفكرُ عن المرء وتضعف إرادته العقليّة فحتما ستختفي كلّ هذه الحسابات والمعادلات، ستعالج الجميع، بسعادة وفرح، تخبرني الطّبيبة المقيمة معنا «مريم» وهي الآن في السّنة الرّابعة والأخيرة مِنَ الدّراسة أنّ أستاذة التّاريخ الّتي كانتْ تُدَرِّسُها في الصّفِّ المتوسّط والّتي كانتْ تعاملهم بقسوةٍ وتستعملُ معهم القوّة والضّرب فَقَدَت أربعة مِنْ أبنائها في حادثٍ وأُصِيبَتْ بعد ذلك بنوبة فُصام، تخبرني مريم أنّها عندما رأتها للمرّة الأولى شَعَرَتْ بالخوف، كانت صدفة لم تتصوَّرْها، أثناء معالجتها لها كانت تتمنّى لو فقط تسترجع قواها العقليّة لدقيقة واحدةٍ لتعلم أنّها الآن بين يدي التّلميذة الّتي لطالما ضربتْها ضربا مبرِّحا لكونها غير مجتهدة، الآن أصبحتْ طبيبةً وصارت تعالج معلّمتها، لم تكن مريم تقصد أن تتلذّذ بألم هذه المرأة المسكينة بقدر ما كانت تشفق على حالتها، ومنْ يدري؟ ربمّا لو لم

تعاملها بقسوة لما أكمَلَتْ مشوارها العلميّ بتفوّق، لا أحد منّا يعلم ما هي حكمة القدر في اختياره لهذه السُّبل الّتي نقطعها ولا نفهم لماذا وكيف نفعل ذلك.

- أخبريني مريم، هل أنت راضيةٌ بعملك هنا؟ إنّه عامك الأخير وبعدها ستعملين في مشفى حكومي.

ضَحكَتْ مريم مِنْ قولي وكنّا نسير في الرّواق المؤدّي إلى قاعة الفحوصات الأسبوعيّة، ثمّ قالت:

- هناك أمورٌ نحبّها فنختارها وهناك أخرى لا نحبّها ونختارها ثم نحبّها بعد ذلك.

- إذنْ أنتِ سعيدة بعملك هنا؟

- نعم أنا كذلك، أتلذَّذ بالعمل، عندما تعيشين حياةً عائليَّة مثل حياتي، ستحبّين بلا شكٍّ عملك وستتمنَّين لو جعلوا لك هنا بيتًا للأبد على أنْ تعودي لمنزلٍ تسكنه الكآبة والقلق.

شَعرْتُ أنّ مريم تخفي حزنا عميقا خلف هذه الابتسامة المشرقة، كانت أشبهَ بالفراشة المحلّقة، الكلّ هنا يحبّها حتّى المسؤولُ يعاملها معاملةً خاصَّة، لم أكنْ أبدا أستغربُ ذلك، كانت تفرضُ حبّها على الجميع، حجابها كان جميلا وأنيقا، كلّ شيء فيها كان مبهرا، كيف لمثلها أنْ يعيش هذه التّعاسة؟ وتذكَّرْتُ فورا ما كانتْ تقوله لي

شناز.. إنّ أتعس النّاس يدّعون السّعادة.

أثناء بدء المعاينة كنتُ أنظر إليها، لم تكنْ قطّ تبدي ما يتغلغل في قلبها، طاقة جبّارةٌ في إخفاء الأشياء، أظنّ أنّ أغلب النّساء هكذا، لطالما ابْتَلَعْتُ الكثير مِنَ الحزن في حياتي ولا أزال أبحثُ عنْ سعادةٍ في ركنٍ ما من هذا الكون، القاعة كانتْ تعجُّ بالأطبَّاء، سامية كانت طبيبةً مقيمةً في السَّنة الثَّالثة، ما أعرفه هو أنّها متزوِّجةٌ مِنْ حارس مستودع السّيّارات في الطّرف المقابل مِنَ المشفى، وهي أمٌّ لطفلين. في البداية لم أستوعبْ هذه المعادلة غير مفهومة الأطراف، لكنّني لاحقا أدركْتُ لماذا تتزوّج الطبيبات دون أيّةِ شروط، هنّ يبحثن عن الأمان الّذي ينقصهنَّ ويبحثن عن عائلة لا تذكّرهنّ أبدا بمعاناة الطّبيب ولا بروتين العمل، أجدني أتحدّث عنهنَّ وكأنّني لستُ منهنَّ، مازلتُ ألعبُ دورَ المتفرِّجة في مسرحيّة هذه القاعة، في الرّكن الآخر يجلس سامي، هو فقط من يُشعرُني أنّني مازلتُ طالبةً في الجامعة لكثرة مزاحه واستهزائه بالوضع الّذي نعاني منه، الرّبيع كان طبيبا مقيما في السّنة الرّابعة، لم يكنْ يتكلّم كثيرا فجلّ حديثه بالإشارة، وبالفعل، الطّبيب هنا لا ينفعه الكلام كثيرا، نحن نحترف الاستماع لما يقوله المرضى مِنْ كلامٍ، وحيثُ أنّنا تعلّمنا أنْ لا نقاطع المريض أبدًا فإنّنا نتركه يتكلّم كما يشاء ثمّ ندوّن ما نجده مِنْ دلالاتٍ في كلامه على الورق، لذلك أتفهَّمُ صمت الرّبيع. مختار وجلال طبيبان في السّنة الثّالثة، رفيقان مِنْ أيّام الثّانويّة. هما لا يحبّان عملهما مطلقا، بصراحة لا أتحدَّث إليهما كثيرا.. لا أجد فيهما أيّةَ صفة للطّبيب الإنسان، كنتُ

أحبّ عملي، الحبّ وحده ما دفعني إلى اختياره وبالتّالي ألغيتهما مِنْ خارطتي منذ اكتشافي لعقليّتهما. أجدني أحدّث نفسي كثيرا، ربّما لأنّني لم أغص بعدُ في جوّ العمل، مازلت عاشقةً لفلسفة الأمور ولا أدري إن كنت مصيبة أم المصيبة أن لا أكون مصيبة.

يا إلهي، لماذا ينظر إليّ هذا المريض هكذا؟ في عينيه شيءٌ ما، لماذا اختارني أنا مِنْ بين كلّ زملائي ليوجّه إليّ هذه النّظرات الثّابتة الّتي تُشعرني بأنّي مذنبة ؟ لا أحتمل هذه النّظرات، تذكّرتُ لوهلةٍ تلك المرأة الّتي التقيتُها ذاتَ صباحٍ باردٍ في المحطّة، قلتُ ربّما يكون زوجها، ربّما هذا هو الرّجل الّذي يعاني من الذّهان الاكتئابيّ الهوسيّ، لكن لماذا ينظر إليّ ؟ ثمّ تذكّرْتُ ذلك الشّخص الّذي كان يقول شعرا في أوّل يومٍ لي هنا، ربّما هو يعاتبني لأنّي نسيتُه ولم أسأل عنه منذ ذلك الحين، وبالفعل لقد نسيتُ أمره، رغم أنّه كان يقتلني الفضول لمعرفة من يكون، يا إلهي، أشتاق إلى الرّكض على الجسر للعودة إلى حيّ القصبة والاحتماء بفارحة، أنا لم أفعل شيئا، لا تنظر إليّ، حوّل عينيك عنّي، فأنا لحدّ الآن لم أعالج أحدا منكم، أنا في طور التّعلّم، لم أحقنك مطلقا ولم أستعمل جهاز الصّدمات الكهربائيّة لمعالجتك.

وجدْتُ نفسي ذلك اليوم أشعر بإحساس غريب، بقي المريض يتتبّعني بعينيه، كنتُ لأهمّ بالخروج لولا أن وجدْتُ في نفسي صوتًا ما يأمرني بالبقاء، كان المريض يعاني من الوسواس القهريّ، هذا حسب

تشخيص الطّبيب المساعد الّذي كان معنا، ودائما في مجال الأمراض العقليّة نفتح قوسا ولا نغلقه، فليست هناك حسابات دقيقة أو أمور قطعيّة لا ريب فيها، هنا كلّ شيء تقريبيّ، كان عليّ أن أتابع حالته، وبالفعل طلبْتُ مِنْ زملائي أن يسمحوا لي بمتابعة حالة هذا المريض، لم يمانعوا، بالعكس، ربّما وجدوا في طلبي راحة لهم من عمل إضافيٍّ، من يدري؟ لأنّ الطّبيب المقيم في السّنة الأولى لا يتحمّل مسؤوليّةً كبيرةً، هو فقط يتعلّم ويمشي خلف ركب الأطبّاء القدامى علّ وعسى ينهل قليلا مِنْ فيض هذا العلم الّذي تحويه عقولهم.

نظرْتُ في عينيه، يا الله كم تدهشني هذه اللّغة الّتي لا أظنّ أنّ هنالك لغةً أخرى في هذا الكون أفصح منها وأكثر بلاغة، قمتُ بأخذ ملفّ المريض وشرعتُ في قراءته، عندها كان زملائي قد غادروا القاعة والمريض أخذه الحاجب إلى تلك الغرفة المعلّقة ذات النّوافذ الّتي تشبه لحدٍّ كبيرٍ هندسةَ السُّجون، عندما عدتُ ذلك اليوم إلى المنزل أخبرتُ فارحة عنْ ذلك المريض وكيف كان ينظر إليّ، كنتُ أعلم أنّني بإخبارها لنْ أستفيد إلّا مِنْ كلامٍ واحد: «دعيكِ مِنْ هؤلاء المرضى، اعملي عملك كالبقيّة وتخلّصي مِنْ هذه الحساسيّات المفرطة، مجرّد نظرة مِنْ مجنونٍ فَعَلَتْ بك كلّ هذا فماذا لو كان عاقلا إذن؟»

آه يا أمّي، أتمنّى لو تفهميني ذاتَ يومٍ، أعرفُ أنّ هذا مستحيلٌ لأنّي أنا أيضا لا أفهم نفسي بشكلٍ واضح، قضيتُ تلك اللّيلَة في مطالعة

كتبٍ طبِّيَّةٍ استعرتُها مِنْ مريم، قرأتُ كثيرا عن الوسواس القهري وعن الذّهان الاكتئابيّ وعن الفصام، كنتُ أشعر أنّ رأسي يكاد ينفجر عندها، لكنّني واصلتُ القراءة بنَهَمٍ، كنتُ أرى صورة ذلك المريض وأتخيَّلُ تقاسيم وجهه وهو ينظر إليَّ بخوفٍ ممتزجٍ بحاجةٍ إلى الحنان وأتذكَّرُ تلك المرأة الَّتي التقيتُ بها ذات صباح في محطّة باب القنطرة، اختلطتْ الأمور عليّ، فوضى عارمة في هذا العقل، كم كنتُ أتمنّى لو كنتُ كاتبةً لأستطيع ترجمة ما أحسُّ به على الورق، مشكلتي أنّني رغم حسّي المُرهف كما يقول الكثيرون لا أجرؤ على رفع القلم ومحاربة تلك الأفكار الَّتي تحاربني أو أن أعقد معها هدنةً أصبُّها شِعرا أو نثرا على ورقٍ أبيض ذنبُه الوحيدُ أنّه قام بإغراء الكلمات، هههه نحنُ لا نحصل على كلّ ما نتمنّى، لكنّ هذه الأمنية بالذّات تمنَّيتُ لو حقَّقتُها، لكنَّ هذه الموهبة لا تُؤتى بالتَّمنّي بل هي هبةٌ مِنَ الله تعالى، كان محمّد يكتب أشعارا جميلة، أذكر أنّه كان يقرأ لنا بين الحين والآخر، ربّما المرّة الأولى الَّتي أحبَبْتُ فيها الشِّعر كانت لمَّا قرأ لنا قصيدة في امرأة كان يحبُّها، كان اسمها «فصول»، ولذلك أطلق على قصيدته اسم الفصول الخمس، لا أدري لحدّ الآن لماذا أضاف فصلا خامسا، ربّما لأنّهما افترقا فكان الفصل الخامس عنوانَ الفرقة، لا أعلم، وحدهم الشّعراء مَنْ يستطيعون فكّ هذه الطّلاسم المبهمة، أتذكَّر ذلك المريض تراود أفكاري عيناه، أتذكَّر ذلك البيت الشّعريّ الَّذي استقبلني به في المرّة الأولى لي في مصحّة «محمود بلعمري»، هل فعلا لا يموت المجانين ؟ «الموت للآتين مِنْ رحم الأسى..أمّا

الجنون فلا يموت ولا يغيب» أشعر بكهرباء تسري في أعصابي، أقف عاجزةً عن تفسير كلّ ما يحدث منْ حولي، أ مِنَ المعقول في مدّة لم تتجاوز الشّهرين لي هناك أن تتراكم كلّ هذه الأفكار والتّساؤلات في ملفّات أفكاري؟ لماذا لا آخذ بنصيحةِ فارحة وأكون طبيبةً عاديّة لا تفكّر بهذه الفلسفة الضّاربة في عمق الوجدان؟ أنظر إلى الصُّورة المعلّقة على الجدار، أتأمّل حبيبي الّذي أشتاق إليه كثيرا.. أتعرف شيئا يا أبي ؟ أظنُّني سألحق بك قريبا، هناك حشرجةٌ ما في قلبي، وشعورٌ مخيف بالوحدة والتّشتّت، لكنّني لحدّ الآن لم أضع بصمةً في ورقة الحياة، لا أزال نكِرَة على هامش هذا الدّرب، أبي، أشعر بالتّعب، أعلم أنّك الآن مرتاحٌ بعيدا عن هذه الآلام والمشاكل الحياتيّة، أظنّ أنّ الموت الّذي يلامس الأجساد الحيّة أكثر قسوةً من الموت الّذي يأخذ منّا أحبّتنا تحت التّراب، أعتقد يا أبي أنّني شبه ميّتة، لكنّني لا أعرف السّبب بالتّحديد، امنحني حضنكَ يا أبي للمرّة الأخيرة، كم أتوق لأن أراك ولو مرّةً واحدة، مشتّتةٌ أنا يا حبيبي في عالم مازال يجهل الكثير مِنْ معالم روحي، أنا لستُ غامضة التّفاصيل لهذه الدّرجة يا أبي، كلّ ما في الأمر أنّ هنالك شيئًا ما في هذا القلب يأمرني ، صوتٌ داخليٌّ يأتي منْ أعماق روحي، يقودني ولا أستطيع أبدا أن أقاومه.

غصتُ في نومٍ عميق، أحتضنُ الكتب والخيالات وبيتا من الشّعر، نامي يا سعاد وأبشري بفرحة بحجم هذه المدينة الّتي تعشقين، ربّما ستلتقين حبيبك الأسمر على شرفة غيمٍ هناك، من يدري؟ ربّما ستعبران الجسور معا وتزوران جبل الوحش ببطاقة مجنون، المحزن

يا سعاد أنّ الموتى لا يعودون إلى الحياة، وحتّى لو مُنِحَتْ لهم فرصةٌ جديدةٌ للشّهيق لم يكونوا ليختاروا درب الجنون، حبيبك الأسمر يرقد في مكان اسمه مقبرة، والعجيب أنّ هذا القبر أيضا اختار جبل الوحش ليكون موطنه الأبديّ، الموطن الّذي لم يتبنّ جنونه فتبنّى جثّته، آه يا جبل الوحش، مقابر ومجانين، كلُّ شيء فيك يرغمني على أن أتقمّص دورا ليس لي، لستُ شاعرة فكيف سأفجّر هذا القلب شعرا ؟ نم يا أبي وامنحني فرصة للنّوم إلى جانبك، أشتاق إليك !

أشعر اليوم بالتّفاؤل، لقد طردتُ أشباح الهموم البارحة مع كلّ دمعة نزلَتْ منْ جفوني، لو كنتُ أعلم أنّ البكاء يمكنه أن يخلّصني منْ كلّ أعباء هذه الرّوح لكنتُ بكيتُ منذ زمن بعيد، مشكلتنا أنّنا لا نعرف ما يريحنا حتّى ندفع ثمنا كبيرا في معركة الشّقاء، تبدو المصحّة اليومَ هادئةً، أكتوبر يكاد ينقضي، تزفّ غيابَه الأوراقُ الصّفراءُ الّتي سَئِمَتْ منْ أغصانها، هنا في جبل الوحش قلّما ترى أوراقًا صفراء، يرفض الجبل التّخلّي عن مظاهر وقاره، لذلك فإنّه لا يلبس إلّا أشجار الصّنوبر والصّفصاف الّتي لا تنتف رأسها كباقي الأشجار حدادا على رحيل الحبيب، تكتم الأشجار مشاعرها وتدّعي اللّامبالاة لكنّها تتمنّى أن تخلع ثوبها ذات يوم لتكتسي حلّة جديدة، أتذكّرُ مريضي، يجب أن أبدأ اليوم في دراسة ملفّه، اتركيني أيّتها الأشجار الباسقة الّتي لا تحسن الابتسام، فقط قبل رحيلي أحمّلك أمانة، الْتَفِتي شمالا وبلّغي السّلام لحبيبي الّذي يرقدُ في الهضبة الّتي خلفك، أخبريه أنّني لم أزرْه هناك لأنّني أخاف رائحة الموت والصّدى الّذي يلفُّ المكان، أنا

لا أزال أناجي روحه وأقبّل صورتَه كلّ صباح.. أعتذر.. يجب أن أغادر الآن، دقّ جرسُ الفراق.

مريضي اسمه أحمد، حسب ما قرأتُ في ملفّه فإنّ عمره ثلاثون عاما، قبل دخوله إلى هنا كان طالب ماجيستير أدب عربيٍّ في جامعة منتوري بقسنطينة، هو يعاني مِن الوسواس القهريّ trouble obsessionnel compulsif وهو إيمان المريض بفكرة ما تلاحقه وتسيطر على شعوره بحيث لا يستطيع أن يتخلّص منها رغم علمه بسخافة معتقده، المريض بالوسواس القهريّ كائن متعَبٌ لأنّ في ذهنه دوما تتردّد أصواتٌ داخليَّة ترهقهُ وعباراتٌ لا يحبّها وأسماء أشخاص قاموا ذات يوم بإيذائه، ما يصل به أحيانا إلى تعذيب نفسه والإضرار بجسده، يشكّ في كلِّ شيءٍ ويخاف منْ كلِّ شيءٍ، كما يقوم بمجموعة منَ الأفعال القهريّة الَّتي يراها إجباريّة ليتخلّص منَ القلق والتّوتّر، كان هذا بعضا منَ الأمور الَّتي قمنا بدراستها، لكنّ الحالات تختلف مِنْ شخص لآخر، كان البروفيسور الَّذي يدرّسنا في مرحلة ما يقول لنا ممازحا.. «أنتم يا طلبة الطّبّ مرضى بالوسواس القهريّ. «، لقد كنا نرى أنفسنا كذلك فعلا، فوسواس الدّراسة والتّنظيم الزّائدِ عن حدّه وكلّ هذه التّصرّفات الَّتي لا يقوم بها إلّا نحن تجعلنا نشكُّ أنّنا مرضى لدرجة أنّ هناك متلازمة أطلق عليها اسم متلازمة طالب الطّبّ، وهو شعور الطّالب أنّه يعاني مِنْ أيّ مرض يقوم بدراسته ويؤمن بالفكرة ويتبنّاها، هههه أذكر أنّ إحدى الطّالبات معنا انفجرتْ بالبكاء بعد أن قدّم البروفيسور درسا حول سرطان الثّدي لظنّها أنّها

تعاني منه، كم كانت ذكريات مجنونة....

أين أنت يا أحمد؟ أنا قادمة.. من المفروض أن يكون معي عونُ أمنٍ تفاديا لردّةِ فعل المرضى، لكنّني وجدتُ نفسي أذهب وحدي متفاديةً حتّى إلقاء تحيّة الصّباح على زملائي.

- صباح الخير، أنا الحكيمة سعاد سلّامي، طبيبةٌ مقيمة، وسأكون سعيدة بالتّعرف إليكَ.

كان يجلس في زاوية في تلك الغرفة الأشبه بالزّنزانة الباردة، غرفة خالية منْ كلّ شيء إلّا منْ الجدران والسّقف، وشبّاك محكم الإغلاق، مصنوع منَ الفولاذ الّذي يستحيل كسره، حتّى السّرير غير موجودٍ هنا، رحتُ أنظر إليه وهو جالسٌ القرفصاء واضعا يديه على عينيه، يسترق النّظر إليّ منْ بين الفراغات الّتي بين أصابعه، شعرتُ للوهلة الأولى بالخوف، تركتُ الباب مفتوحا استعدادا للهرب في أيّ وقت، لكنّني تماسكتُ وتقدّمتُ نحوه، وجدتُه غيّرَ وضعيّته وقام فجأةً ثمّ صرخ في وجهي قائلا:

- ماذا تريدين؟ أنا لست وحشا، وأصلا الوحش مات منذ زمن بعيد، هذا الجبل ليس فيه أيّة وحوش، غادري.

- لكنّني جئتُ لأتحدّث إليكَ فقط، وأنتَ لستَ وحشا، أنتَ شخص لطيف.

- هههه كلّكم يقول هذا فقط كأوّل خطوة لشنّ الحرب على أجسادنا بتلك الصواعق والأدوية، أنا لست مريضا، أدويتكم هي الّتي سبّبتْ لي هذه المشاكل.

- أحمد....

وقبل أن أُكمل نظرَ إليّ وارتسمتْ ابتسامةٌ على وجهه، وقال:

- أنتِ تعرفين اسمي إذن؟

- نعم أعرفه وأريد أن أعرف كلّ شيء عنك، هذا إن سمحتَ لي.

- يعني أنا موجود ولست شفّافا كما كانت ماريانا تقول؟

- ماريانا؟ منْ تكون هذه؟

- هههه أنت لا تعرفين ماريانا؟ بالله عليك هل أنت طبيبة؟ ماريانا حبيبتي في عصر آخر ومكان آخر.

ثمّ بدأ يدور في تلك الغرفة وكأنه يمارس طقوسا ما، يكرّر نفس الخطوات وبنفس النسق ثمّ يبدأ بالعدّ وهو يردّد ماريانا ماريانا، منْ تكون هذه الماريانا؟ لا أفهم شيئا، سألتُه منْ جديد..

- حدّثني عنها أين هي الآن ؟

توقّفَ عن العدّ، ثمّ التفتَ إليّ ووجهه يتهلّل فرحا وقال:

- ماريانا، تركتْني مع موتِ لوركا، ذلك الشاعر الإسباني المعتوه، كانت ستنساه للأبد لو أنّه أصيب بالجنون وحصل على ميزات

الخلود، لكنّه أغراهم بقتله فعاودت البكاء عليه، ولا تزال منذ ذلك الوقت تقرأ تلك القصيدة الملعونة الّتي كتبها لها قبل أن يموت، تخيّلي.. هي لا تفكّر حتّى في زيارتي هنا، لكنّني سأهرب ذات يوم لأنبش قبر ذلك الشاعر المريض لتعود ماريانا إليّ.

لم أجد ما أقول له، كانت علامة استفهام كبيرة تجول في خاطري، أنا لا أعرف أصلا منْ يكون لوركا هذا وهل هناك شاعر يحمل هذا الاسم حقًّا، ولأن ثقافتي الشّعرية كانت جدّ محدودةٍ لم أستطع أن أنكر وجود هذا الشخص في عالم الأدب، أردتُ أن أطيل الحديث أكثر، سألته:

- ولماذا تريد نبش قبره ؟ اتركه، أنت أفضل بكثير منه، هو ميّت، لن تتذكّره ماريانا، لكنك حي وستعود إليك أنت.

- أنت لا تعرفين شيئا أيتها الطبيبة، لقد تغيّرَتِ العقليّات، أصبح الحبّ الخالد للموتى، ولأن المجانين لا يموتون سيُحرمون طيلةَ خلودهم منْ هذا المعنى، أشعر الآن برغبة في الصراخ، هنالك صوتٌ ما في داخلي يكلّمني، يلومني، يقول إنّني فاشل.

- لا، لستَ فاشلا.

بدأ ينتف شعره بقوة، شعرتُ بخوف وأشفقتُ عليه، وفي نفس الوقت كنتُ متأثّرة جدًّا بكلامه، معجبةً بفلسفته المجنونة، حاولتُ تهدئته وتذكّرتُ الأشجار الّتي تنتف أوراقها، ثمّ لاح في ذاكرتي ذلك

البيت الّذي قاله لي ذات صباح، وجدتُ نفسي أغمض عينيَّ بدون شعور مسبق لأردّده، ماذا حدث لي ؟ لقد أخذني هذا الشّخص إلى عالم لطالما كنتُ مهووسة به، وكأنّه قام بتنويمي مغناطيسيًّا، عندها وجدتُ أحمد توقف عن نتف شعره وكانت عيناه هذه المرة تحمل دلالة مختلفة عن نظراته السّابقة، شيء لا أقدر أن أفسره، دهشة وفرح وقليل من الخوف وبعض من الأمل الّذي ينتظره والّذي ما توقّع قطُّ أن يجده هنا في هذا المكان بالتحديد، أغمضَ عينيه، وضع يده على أذنه، أطرق وكأنه يستمع إلى شيء ما، ثم همس:

- شكرا أيتها الحكيمة، لقد أخبروني الآن أنّ لوركا عاد إلى الحياة وهو الآن يبكي لفراق ماريانا، أنتِ أنقذتني منْ هذا المرض الّذي كنتُ أعاني منه، فقط قولي لي مِنْ أين جئتِ بهذا البيت، كتبتِه قبل أعوام ؟

استغربتُ، بدأ يتحدث بجدّيّة وكأنه شخص لا يعاني منْ أي مشكلة عقلية، صرتُ أشعر أنّني أنا المجنونة وهو الطبيب وكأننا تبادلنا الأدوار، كيف حدث هذا في أقل منْ ساعة من الزمن؟

- لقد قرأتَه لي في أول يوم لي هنا في هذه المصحّة، كنتَ تناديني منْ خلف شباك هذه الغرفة؟ لا تذْكُر؟

- هل أنت هي نفس تلك المرأة الّتي كانت ترتدي ثوب الحداد في صباح بارد ؟

- لكنني لم كن أرتدي أي ثوب حداد..

- لا بل كنت ترتدينه.. أتعرفين أيتها الحكيمة ؟ الآن وبعد أن خلعتِ ذلك اللون الأسود، ستتفتّح البراعم لتعلن عن قدوم موسم الربيع وبالتالي سوف لن يكون هناك شتاء أو ثلوج.

كان كلامه يأتي واثقا وراحت عباراته تتغلغل إلى روحي، شعرتُ أنّي أنا العاشقة للغة الفلاسفة لا أملك ما أردُّ به أمام كلماته الأقرب ما تكون إلى العالم الوجدانيّ الّذي لطالما أحببتُه، أعرف أنّ هذا النوع من المرضى يملك حجة كبيرة في الإقناع وهذا ما يميزهم عن غيرهم، ولكن لا أعتقد أنه يعاني من الوسواس القهري كما كُتب في ملفه، هناك أعراض كثيرة تجعلني أشكّ في أمراض أخرى، هذا الشخص المريض -في مفهومنا الطبي- يملك بلاغة وفصاحة، أقف عاجزة أمامه، بينما يظلّ ينظر إليّ بنفس تلك النظرات الممتزجة بالخوف والفرح، لا يزال الباب مفتوحا ولا تزال عقارب الساعة تسير ببطء وكأن الزمن توقف هنا فقط ليمنحني فرصة لأستمع إلى هذا الّذي يُدعى أحمد، حاولتُ أن أطيل الحديث أكثر.

- يبدو أنك شاعر كبير يا أحمد ؟ هل عندك مجموعات شعرية ؟

- الكلّ يؤمن أنّني شاعر، حتّى المجانين هنا يعتبرونني أمير الشعراء في هذا الكوكب، المشكلة أنّ ماريانا ترفض أن تصدّق هذا، تظن أن لوركا فقط هو الشّاعر الوحيد على وجه الأرض، لقد نسيتْ كلّ ما

كتبتُ لأجلها مقابل قصيدة واحدة كتبها لها قبل دقائق منْ موته.

- لكنّ لوركا عاد إلى الحياة، وبالتالي ستنساه ماريانا، ألم تقل هذا قبل قليل؟

- نعم، ستنساه ولكنّها لن تتذكّرني إلّا إذا صرتُ ميّتا، وبما أنّ المجانين مخلّدون في العذاب، سوف لن أنعم أبدا بحبّها، أتريدين أن تعرفي بعض الهراء الّذي كتبَه لها؟

- بلا شك، أريد أن أعرف.

- يقول لها:

إذا نقضى عمري وتحقّقَت الأحلام وأشرقت شمس الوطن فابحثي عن الجاني وخذي لي بالثأر منه وانثري على قبري وعلى قبرِ أولئك الضحايا أكاليلَ مِنَ الورود وترانيمَ عاشقة.

- كلمات جميلة، أليس كذلك؟

-لا تمتّ للجمال بصلة، ماريانا لا تحسن رفع السلاح، الكل في هذا العالم أصبح عاشقا للقتل، حتّى أولئك الّذين نحبّهم يلوّثون ذكرانا برائحة الانتقام وطقوس الأحقاد، أتعرفين ماذا حدث البارحة ليلاً أيتها الحكيمة؟

- ماذا؟

- أحد أصدقائنا هنا اقتلع عينيه، وقام بشنق نفسه، تخيّلي لم يسمحوا

لنا حتّى بإلقاء نظرة أخيرة على ملامحه، والسبب كلّه يعود لتلك الزوجة الّتي لم تستطع أن تفهمه، ألقتْ به إلى هنا، هي لا تشبهُ ماريانا مطلقا، امرأة مجرمة، أعرف أن عبد الله سيقتصّ منها عند رب الجلالة.

جاءت كلماته كالصاعقة، لوهلة كنتُ أستمع إلى كلماته لا بأذن الطبيبة بل بأذن امرأة فيلسوفة لا تعتبر الجنون مرضا وترى في اختلاف العقول أمرا مبهرا، أحسستُ أنّ الكون انطبق على صدري، لم تكن عندي ليلة البارحة مناوبة ولم يخبرني أحد منْ زملائي عن هذا الحادث، أجدني أصدّق كلّ كلمة يقولها هذا الرجل.. رغم يقيني أن هذا النوع منَ المرضى قادر على تأليف الأساطير وإقناع النّاس بها، نظرتُ إليه وكان قد بدأ بنتفِ شعره، هذه المرّة خرجتُ منَ الغرفة مسرعة، أغلقتُ الباب بإحكام، تفاديا لهروبه، وجدتُ عون الأمن عند الباب، أخبرني أنه كان هنا منذ دخولي لكي يقوم بحراستي، وجدتُ نفسي أمضي دون أن أشكره، لم يكن قصدي أن أتجاهله، كانت هناك أمور كثيرة تشغل فكري.

لم أجد في قاعة الأطباء إلا مريم، وجدتُها غارقة بين الأوراق والملفات تدرس حالة مرضية جديدة، لم أجد على وجهها أيّ شيء غريب أو ملامح حزينة، توقّفتُ عند الباب وبقيتُ أنظر إليها، و هي لا تزال تكتبُ تلك الأوراق، حتّى أنها لم ترفع رأسها ولم تبدِ أي حركة، ربّما لم تنتبه لوجودي هناك.

- صباح الخير مريم.

- صباح الخير سعاد، وصلتِ الآن؟

- لا، بل وصلتُ منذُ أكثر منْ ساعة، كنتُ في غرفة أحمد.

- أحمد؟ منْ يكون هذا الشخص؟

استغربَتْ مريم، لم تجر العادة أن يُنادى المرضى هنا بأسمائهم، في الغالب يسمّى كل مريض بالمرضِ الَّذي أصابه إضافة إلى رقمِ الغرفة للتمييز بين المرضى .

- إنه المريض في الغرفة الثانية على يمين قاعة المناوبة في الطابق الثالث الَّذي يعاني منْ الوسواس القهري.

- آه، تذكّرته، ذلك الَّذي بقي يحدق فيك المرة الفارطة وأصابك الذعر منه، هههه يا لك منْ مجنونة.

- ليس هذا الأمر الَّذي جئتك منْ أجله، هل صحيح ما سمعتُ؟

- أخبريني وأنا أثبت أو أنفي ما سمعتِ.

هل حقاً أنّ أحد المرضى البارحة قام بشنق نفسه واقتلاع عينيه؟ وكيف كان اسمه؟

- ظننتُ أنّ هناك أمرا آخر، أفزعتِني يا سعاد، هذا ليس أمرا جديدا، مرضى الذهان الاكتئابيّ الهوسي غالبا ما يفعلون ذلك.. اسمه عبد الله محمودي.

جاءت كلماتها كالصّاعقة ولطالما تلقّيتُ الصواعق في حياتي، لكنّ ما قالته لي مريم جعلني أتخيّل نفسي بعد أعوام منْ العمل في هذه المصحة، هل هناك احتمال أن يتحوّل قلبي الزّجاجيّ الّذي ينكسر مع أوّل هبّة ريح إلى قلبٍ منْ فولاذ؟ لا أتمنّى هذا، مجرد التفكير في هذا الأمر يُشعرني بالخوف. وبعد لحظات الشرود هذه عاودتُ تحليل كلام مريم وفجأة نبض قلبي بشدة، لقد قالت مرضى الذهان الاكتئابيّ الهوسيّ، صرختُ في وجهها منْ دون تفكير، كانت روحي المتعبة منْ تتكلم على لساني.

- مريم، هل قلتِ مريض بالاكتئاب الهوسي؟

- نعم، مالي أرى لونك تغيّر؟ أظنّ أنّك تمرّين بأزمة ما.

- وهل هناك أكبر منْ هذه الأزمة؟ حدثيني عنه، هل كان مريضك؟

- يا لك منْ مجنونة.. نعم كنتُ أنا منْ تعالجه؟ كان هناك تحسّن مؤخرا في حالته، لم نتوقع قطّ أن يُقدم على الانتحار، والأمر الّذي جعلنا نستغرب هو كيف أمكنه أن يشنق نفسه بعد اقتلاع عينيه؟

- يا لشدّة الألم...أخبريني كيف انتحر؟

- كان في غرفته، أنت تعلمين جيدا أنّنا لا نترك أيّ غرض يمكنه أن يسبّب إلحاق الضرر بهم.

- أدري، أدري، أخبريني كيف شنق نفسه؟

- كان لديّ مناوبة البارحة ليلا أنا وجلال و سمعنا صوتا ينبعث منْ

غرفة المريض ذهبنا إلى هناك، مع بعض الممرضين، فتحنا الباب فلم نجد أحدا هناك، اتصلنا بأعوان الأمن، بحثوا عنه في كل مكان، لم يجدوا له أثرا، وعند عودتنا إلى غرفته في آخر المطاف، تبين لنا أنه كان قد شنق نفسه خلف الباب ولم ننتبه نحن عند قدومنا أول مرّة، استعان بقميصه و بمشجب كان هناك.

- المسكين... واقتلع عينيه قبل ذلك؟

- نعم هذا ما حدث، المصابون بنوبات الكآبة الحادة في هذا المرض لا نستبعد أن يقوموا بمثل هذه الأفعال، ولأننا لم نجد عينيه فاحتمالٌ كبيرٌ أن يكون قام بابتلاعهما.

كنت أقرأ دائما عن هذه الحالات في الكتب، ولم أتوقع قطّ أن تصادفني في أول مشواري، وتذكّرتُ تلك المرأة الّتي التقيتُها في محطة باب القنطرة، واشتعلتْ في أنفاسي نارٌ وانطلقتْ منْ قلبي دقّات متسارعة، تركتْني مريم واقفة في ذلك الذهول، وقبل أن تنصرف سمعتها تقول: «لا تضخّمي المواضيع، هناك أحداث في الحياة يكفي أن نقف عليها ثم ننساها كي لا نصاب بالجنون.» .. أتريدينني يا مريم أن لا أجنّ؟ ومنذ متى كنتُ عاقلة؟ هذا العقل الّذي يؤرقني معناه، وهذه الفلسفة الّتي أعشقها وهذا الشعر الّذي بدأ يقتحم حياتي، كلّ هذه الأمور سبّبتْ لي صدمة كبيرة في المفاهيم، وكالعادة هناك دوما لحظات تيه وشرود تتخلل أفكاري بيني وبين نفسي ليخطر في بالي أحمد وما قاله لي اليوم صباحا، أحمد لم يكن يكذب، فحكاية عبد الله لم تكن منْ نسج خياله، ربمّا

يكون زوج تلك المرأة الّتي رحلتْ ولم أسألها عن اسمها؟

ذهبت لأُقلّبَ بين ملفّات مريم، قلتُ في نفسي لربّما وجدتُ شيئا ما يجعلني أهتدي إلى الصواب، ولاح اسم عبد الله محمودي في أحد الملّفات، في آخر ورقة كُتب تاريخ الوفاة والساعة والسبب وفي أول ورقة معلومات كاملة عنه، بدأتُ أطالع الملّف بلهفة وأبحث بين السطور، فقرأت:

عبد الله محمودي يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، منْ مواليد قسنطينة حيّ «بوصوف»، كان يعمل إسكافيّا، متزوّجٌ وله خمسة أطفال، يعاني منَ الذهان الاكتئابي منذ أكثر منْ عشر سنوات، تعرض خلال هذه الفترة لإثني عشرة نوبة اكتئاب حادة ما جعله يحاول الانتحار مرارا، و كان سبب دخوله إلى المصحة محاولة أخرى للانتحار منْ على جسر سيدي مسيد..... انتحر شنقا متأثرا بمرضه.

عندما أنهيتُ القراءة، وجدتُ نفسي غارقة في بحر منَ الدهشة، كان كل شيء يبدو غريبا، وكأن يدًا خفيَّةً ترتِّبُ لما يحصل الآن، تلك المرأة كانت تخفي حكايا وأسرارا في دهليز عينيها، كان يكفي لو أمعنتُ النّظر فيهما طويلا لأكتشف كلّ تلك الخبايا، أرى نفسي ألعب دور المحقّقة الّتي لا تنام لكي تعرف التّفاصيل الدّقيقة للجريمة، قد لا يكون ما حدث البارحة جريمة في قاموس معانيهم، لكنّي أحمّل نفسي وأحمّل الجميع المسؤولية، في صغري كنتُ أحب شخصية المحقق كونان، لكن ما لم أتوقعه هو أن أتقمّص دوره، أيحدث كلّ هذا بسرعة وفي يوم واحد؟ لم تمهلني هذه المفاجئات فرصة لكي

أتنفّس وأرتّب هذه الفوضى على رفوف أفكاري، ما أعرفه الآن أنّني لا أستطيع التراجع أبدا، هناك في مكان ما منْ هذا المكان الموحش يجلس أحمد، ربما ينتف شعره ويبكي ذكرى ماريانا، وهناك في بقعة أخرى منْ هذه المدينة امرأة تشدّ شعرها وتبكي رحيل زوجها، هما يتشابهان في مسرح الأحزان، كلاهما يرثي قلبه وينادي حبيبه، ربمّا يختلفان فقط في سبب هذا الأسى، ومنْ أي رحم جاء، منْ واقع معاش، أم منْ خيال معاش أيضا، فنحن نؤمن بخيالنا بقدر ما نؤمن بأسمائنا، بل أحيانا نحاول أن ننسى قليلا منْ نكون، ننسى حياتنا، فقط لنعيش برهة واحدة في فكرة نعشق أن نراها حقيقة.. لا تثريب على كليهما، يبقى الحزن حزنا ولو اختلفتْ جميع الخلائق في شرح مكنونه، يظلّ ينخر عظم الوجود ليجعله رفاتا في آخر المطاف، أراني صرتُ أعشق لغة أحمد، وبدأتُ أقتبس أفكاره، لكنّه قال أن المجانين لا يموتون، وها قد مات عبد الله، جعلتُ أفكر وأفكر وأفكر، كم يتعبني هذا العقل، ربمّا لو كنتُ فتاة لا تسأل كثيرا كما قالت لي فارحة لصرتُ أفضل، ألا يأمرنا الله عز وجل بأن لا نسأل عن أشياء لو تبدو لنا تسوؤنا؟ وبينما أنا أخاطب روحي كما اعتدتُ واعتادت، يفاجئني جلال بدخوله إلى القاعة، لم أكن أنسجم معه كثيرا، لا أجد مطلقا الراحة في التعامل معه، هو منَ الشخصيات الّتي تعشق لفت الانتباه دون أن تفعل شيئا يستحق الذكر، لكنّني كنتُ مرغمة على أن أتعامل معه، هكذا الطب يفرض علينا أن نكون يدًا واحدة ولو كانت قلوبنا شتّى، أحسستُ أنه سيبدأ بالكلام وفعلا نطق.

- سعاد، صباح الخير، منْ فضلك أعطني الملف الّذي في يدك.

- صباح الخير، أي ملفٍّ؟

- الملفّ الّذي تحملينه، ملفّ المريض عبد الله محمودي.

- آه، تفضل.

- أعتذر، لأنّي قطعت خلوتك، أنت تعرفين التحقيقات والطب الشرعي، هذا الملف ينتظرونه في مكتب المدير، عن إذنك.

غادر جلال القاعة مهرولا في مشيته كعادته، لم أحاول أن أستفسر منه، كان مجرد الحديث إليه يشعرني بالتوتّر، لكن بصفتي طبيبة مقيمة في عامها الأول، وجب عليّ أن ألحق به، فقط لأطّلع على الأمر عن كثب، كنتُ خائفة وأنا أتتبعه من أن يلتفت فيجدني وراءه رغم أن العادة جرت بذلك، دائما مَنْ هم أكبر منك رتبة في المشفى يجعلونك تشعر أنّهم أفضل منك وأكثر ذكاءً رغم أن الشيء الوحيد الّذي يفصل بينك وبينهم مجرد امتحان في آخر السنة، ونجاحك يعتمد على قدرتك الخارقة في الحفظ والّتي لا أظنّ أن شخصا خارج مجال الطب يستطيع عقلُه امتلاكها، أثناء سيري نحو مكتب المدير، لمحتُ شيئا ما يلوّح لي، شيئا ما يشير إليّ، توقفّتُ، حاولتُ التأكد منَ الأمر، رأيت نفس الطيف الّذي كان ينظر إلي منْ ذلك الشُبّاك الحزين في أول يوم لي هنا.. لقد كان أحمد، سمعتُه يقول : بلّغي سلامي إلى عبد الله، حاولتُ أن أسدّ أذنيّ وأمضي كأنّني لم أسمع أي صوت، لكن لم أقدر، ثمّ تذكرتُ المدير وخفت أن يقوم بتوبيخي كما فعل عندما قدّمت إليه ملّفي ذات صباح بارد، وعندها وجدت نفسي أكمل طريقي تاركة مجنون ماريانا يترصدّ خطاي بعينيه كان

جلال قد اختفى في تلك السلالم، كنتُ أتمنى لو استطعت أن أدخل في نفس اللحظة معه إلى مكتب المدير، فقط لكي لا أجلب انتباه الطاقم الطّبيّ الموجود هناك، لكن أحمد أفسد خطّتي، ما جعلني أحصل على توبيخٍ منَ الطراز الرفيع، لكنّني استطعتُ أن أخرج منَ الموقف بسلام عندما تدخّلتْ مريم وإيمان وقامتا بمدحي أمامه، وبأنّني وفي ظرف قياسي استطعتُ أن أتعلّم الكثير، كانتا تحاولان إنقاذي منْ صياحه، فهمت منْ هذا الاجتماع أن تقرير الطب الشرعي أجري هذا الصباح وأثبت أن الموت كان شنقا ولا علاقة له أبدا بأي خطأ طبي، كان هذا بمثابة مأساة كبيرة بالنسبة لي، كنتُ أنظر إلى زملائي وطاقم الممرّضين وهم يستمعون ببرودة أعصاب ولا تبدو على وجوههم أية علامة تأثّر، عندها قمتُ بابتلاع ملامحي المصدومة واستعرتُ وجها يشبه لحدّ ما تقاسيم وجوههم الباردة، لكنّي كنتُ أعرف يقينا أنّهم على صواب، فالطبيب الّذي لا يخفي مشاعره وتوتره سيفقد حتما ثقة المريض، كنتُ أعزّي نفسي وأقول مازلت مبتدئة، سأصير مثلَ مريم ذات يوم، طبيبة قوية، مريم الّتي لحدّ الآن أنا أعرفُ أنّها تخفي الكثير من الضعف والخوف خلف قناع القوة هذا، نظر إلي المدير وقال:

- حكيمة سلّامي، أكلّفك بالذهاب إلى غرفة المناوبات الليلية، لإحضار سجّل الاستعجالات، أما البقية يمكنكم الانصراف.

لم يمهلني الفرصة حتّى أجيبه، وراح يكمل حديثا كان قد بدأه مع رئيس وحدة الممرضين، حاول سامي السخرية مني وارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ سرعان ما حوّلها إلى ملامح جدّيّة بمجرّد وقوع نظرات

المدير عليه، كان سامي شخصا طيّبا، لم أكن لأغضب منه البتة، عند وصولي إلى غرفة المناوبات لفتتْ غرفةُ عبد الله فضولي، لم أدخلها منْ قبل، لم أكن حاضرة لأرى المسكين وهو متعلقٌ بحبل مشنقة صنعها بيديه، دخلت وعند أول خطوةٍ شعرتُ برائحة الموت تعانق حواسّي، تردّدتُ في البداية، لكنْ سرعان ما تمالكتُ نفسي ودخلتُ مغمضةً عيني كردّة فعل على مشهد مرسوم في خيالي، كان المكان خاليا منْ كل شيء إلا من الخوف والصدى الّذي يعلن أن شخصا ما كان هنا قبل يوم من الآن، لا يزال طيفه يحوم في كل ركن، لا شيء خلف الباب، سوى بعض منْ خيوط صوف بيضاء عالقة بالمشجب الحديدي، في الجانب الآخر وسادةٌ وسجّاد قديم، لفتتْ انتباهي رسومٌ جميلة وزخارف على غلاف تلك الوسادة، اقتربتُ عن فضول، كان طرزا جميلا، لطالما كانت النساء القسنطينيات بارعات في هذه الحرفة اليدوية، حاولت التدقيق في ذلك الطرز، وجدتُ أنها شجرة عائلة، كُتب في أعلى الشجرة عبد الله وفاطمة وأسفل منْ ذلك خمسة أسماء أخرى، لم يكن ذكاء كبيرا مني أن أخمن أنها زوجته وأولاده، وهذا يعني يا أحمد أنّ زوجته كانت تحبّه، قد تكون طرّزتها بدموعها وحبها ودعائها بالشفاء لزوجها، لا شيء يجبر المرأة أن تبدع إذا لم تكن تحبّ فعلا، قد تقوم المرأة بواجباتها الزوجية على أكمل وجه وتكون أمّا وزوجة مطيعة ويكون أمرا عاديا، ولكن أن تفعل هذا فهذه امرأة أعارت قلبَها أناملَها لتبدع عن شغفٍ ومحبّة، أين أنت يا أحمد لترى هذا؟ أمسكتُ الوسادة، وكانت يداي ترتعشان، كنتُ خائفة أن يمرّ أحد أعوان الأمن منْ هنا فيراني في هذه الغرفة، أكيد سيتبادر إلى ذهنه أنّني مجنونة

ويشكك في قواي العقلية، لا أظنّ أن أحدا منهم يملك هذا النوع من الثقافة الّذي يجعل المرء لا يكتفي بالأمور الملموسة بل يبحث دائما عن تفاسير روحية وفلسفات وجدانية، وبينما رحتُ أتلمّس تلك الوسادة، لاحظت أن فيها جيبا مطرّزا بإتقان وعلى قدر كبير من الجمال، لكن الأمر الّذي أدهشني وجود ورقة فيه، كان يبدو أنّها رسالة، بالفعل لقد كانت رسالة، لا أدري كيف أخذتُها وفتحتُها ووجدتُ نفسي أقرأها دون أن آخذ الإذن منْ روحه المتعبة الّتي تنظر إليّ بحزن وألمٍ وأنا أقتحم هذه السطور وأتلذّذ بالغوص في كلماتها، كان خطًا أقرب إلى شكل الدّوالّ المثلّثيّة الّتي كنت أعشق حلّها ورسمها في مادة الرياضيات في فترة الثانوية، كانت كتابة متموّجة، حرف يصعد وآخر ينزل، وكأنّ القلم الّذي كتبها كان موصولا بشرايين القلب، يتأثر بالدورة الانبساطية والانقباضية لها، كنت على يقين منْ أنّ هذه المرأة العاشقة هي منْ كتبت هذه الرسالة، لم يكن يخالجني أيّ شك في ذلك إلى أن بدأت القراءة بتمعّن..

«حبيبتي فاطمة، لا أدري إن كنت ستقرئين هذه الرسالة، أنا أكتبها الآن وأعرف أنها لن تصلك أبدا، لم أستطع العيش منْ دونك، سئمتُ البقاء في هذا السجن، ولذلك قرّرت أن أغادر، و أن أرحل عن هذا الوجود لترتاحي أيضا من التعب الّذي سببته لك، كنتُ أتمنى لو استطعتُ تسليمك هذه الرسالة قبل أن تصعد روحي إلى السماء، لكنّ المجانين أحلامهم لا تتحقق، أعرف أنّك لم تحبّيني يوما وكان كلّ اهتمامك بي شفقة، لم تشعريني يوما أنّني شخص سويّ، كنتِ دوما تعامليني كطفل تخشينْ أن يقعَ ويجرح نفسه، حتّى أنك قمت بتسييج

المنزل وصنعتِ لي سجنا هناك أيضا، أنا لم أكن أحاول أبدا أن أقتل نفسي، وحتىّ الآن برحيلي عن هذا العالم، لن أكون ميّتا،لأن روحي ستظل دائما تراقبك وتسأل عن أحوالك، اشتقتُ إليك وإلى أطفالي الّذين يهربون كلّما رأوني، لذلك سأقتلعُ عينيّ فقط لكي لا أرى مجددا هذا المنظر الّذي يحزنني ويتكرّر في ذاكرتي، كنتُ دائما أقول لك أن قدرَ الإسكافيّ سيكون مشابها للأحذية الّتي يقوم بترقيعها، تحملُ كل ذلك الجسد المتعب ثمّ يُلقى بها إلى حاوية النفايات، لا عليك عزيزتي لن تضطري بعد الآن إلى أن تغلقي النوافذ والشبابيك، ولن تشعري بالخجل منّي أمام أقاربك، ليتني فقط أستطيع العودة دقيقة واحدة بعد الموت لأراك وأنت تبكين عليّ، كنت سأشعر بالسعادة، لكنّي واثق أنّك لن تبكي أبدا، أعلم أنّ هذه الرسالة ستفنى وستُمحى سطورها بعد أن تلقى في مكان بعيد، ستبللّها الأمطار ثم تنسفها الرياح وقد تلحق بي إلى المقبرة، هناك في جبل الوحش حيث يعانق سجني أسوار القبور.. سأفتقدك في ذلك المكان الموحش، زوريني هناك لو مرّة واحدة فقط لتعلمي كم كنتُ مجنونا بك لدرجة أنّني رحلتُ للأبد لكي لا تذرفي دمعة في حضوري.»

انتهت الرسالة، غرقتْ عيناي في بحر من الدموع، تسلّلتْ ملوحتها إلى شفتيّ، شعرتُ بشلل في قدميّ، أخفيتُ الرسالة في جيب المئزر، بلعتُ الحرقة ثمّ تنفّستُ بعمق، تذكّرتُ ما طلبه منّي المدير، غادرت القاعة وهذه الروح تئنّ كطفلٍ صغير يبحثُ عن أي شيء يشعره بالأمان، ولو مجرد صوت ما يقتحم هذا الصمتَ المخيف في دهاليز النفس.

وانتهى اليوم....

رسالة تحت المطر

لاحظ جميع منْ كان معي في المشفى أنّ حالي تغيّر وأنّ هذا الشرود أصبح جزءًا منّي، لم يكن أحد منهم يفهم أنّني أحاول أن أحقق توازناً نفسيًا بعد كلّ ما اكتشفت منْ أمور، سلسلة كبيرة من المفاهيم الثقيلة والأفكار المتعبة، نصحتني مريم بأن آخذ إجازة و لو قبل الأوان المتاح لذلك، اتصلتْ بي هاتفيا وأخبرتني أنّها ستتحدثُ إلى المدير وستطلب منه أن يمنحني عطلة، عطلةً لمدّة شهر، وكانَ لنا الحقُّ في أن نأخذ شهرا واحدا كلّ عام، وافقتُ على الفور، كنتُ أحتاج إلى أن أعيد غسل روحي منْ هذه الوساوس الّتي صارت تلاحقني، لم أخبر أحدا عن تلك الرسالة، صرتُ أخاف حتّى منْ فتحها منذ أن قرأتها أول مرة.

كان شهر نوفمبر وكنت أحب هذا الشهر فهو أفضل الشهور بالنسبة لي، ليس لأنّني ولدتُ فيه فحسب، بل لأنه شهر الثورة التحريرية المباركة الّتي خلّصت هذه الأرض الحبيبة منْ أقدام المستعمر العفنة، نعم لقد كنتُ فتاة وطنيّة بامتياز، أعرف أن للوطنيّة معاني كثيرة وشرحا مستفيضا، لكنّي كنتُ مؤمنة بأنّي أحمل هذه الرتبة الشرفية، فرغم كل هذه الأحزان الّتي تخترق فؤادي، مجرّد التفكير في

هذا الوطن الغالي يجعلني أستحقر كلّ مواجعي وآلامي وجروحاتي.. أحبّك أيتها الجزائر، أنا أعشقك.

يمكنني الآن أن أتجول في مدينتي، أن أعانق الجسور، أن أستنشق رائحة التّراب المعطّر بعد أول قطرات المطر، أن نخرج أنا وفارحة كلّ مساء لسوق «العصر»، هناك حيث رائحة التوابل وألوان الخضر والفواكه، كل شيء في هذا السوق يشعرك بالجوع، حتّى منظر الباعة وهم يلحّون عليك بأن تشتري شيئا منْ عندهم، استغربتْ أمّي كثيرا منْ إجازتي السريعة، كانت تحسّ أن ابنتها تحتاج إليها، إلى حضنها الدافئ، إلى لمسة حنان قبل النوم، وإلى تعويذة تطرد بها الوحش، هذا الّذي هربت منْ الجبل الّذي يملكه، رفضا للخضوع له...

- أمّي...

- ما بك يا حبيبتي؟

- أحتاج إليك، ضمّيني، أشعر بالخوف.

- تعالي إليّ يا صغيرتي، أخبرتك أن لا تملئي رأسك بهذه المتاعب.

كان حضن أمّي يفوح برائحة غريبة وجميلة، لقد كانت رائحة الجنّة، كنت موقنة بهذا الإحساس، كنت أضمّها إليّ وأنا أرى أبي يحدّق فينا وهو يرتدي بدلته السوداء وربطة عنق أنيقة، كانت عيناه تبتسمان،

أعرف أنه سعيد ويتمنى لو استطاع أن يكون معنا الآن، أتعرف يا أبي؟ أنا الآن في عطلة، عطلةٌ منْ كل شيء، سأستعير فرحا وسأشتري خمارا فاتحاً، سأترك الأسود للأبد، هذا ما قاله لي أحمد.. لا أدري لماذا أذكر مجنون ماريانا في حضور أبي، أبي الَّذي ينصت إليّ دون أن يفهم كلمة واحدة منْ جنوني...

خرجنا أنا وفارحة بعد يومين منْ إجازتي إلى مكتب البريد، طلبتُ منها أن ترافقني، خصوصا عندما قلت لها أنّني سأسحب أول دخلٍ شهريّ لي، رأيتُ في عينيها بريقا منَ السّعادة الَّتي لم أعتد رؤيتها إلا نادرا، لم تكن أمّي امرأة مادية، لكنّ المال كان بالنسبة لها ضمانا للأمان والعيشة الكريمة، هي الَّتي لم تمدّ يدها لإنسان قطّ، بصراحة شعرتُ بالفرح أيضا لفرحها، حاولتُ ذلك اليوم أن أمنحها ولو قليلا من السعادة، رحنا نتجوّل في ذلك اليوم البارد، ولم نشعر قطّ بالتعب، كنا محتاجتين أنا وهي إلى هذا النفس الجديد، قمنا بالتّسوّق وتركتها تختار ما تشاء، كنتُ أنظر إليها وهي تختار بعض الأنواع منْ الأقمشة كعروس تنتقي بلهفة أغراض عرسها، لم تكن أمّي كبيرة جدّا، هي الآن في الخمسين منْ العمر، كانت النساء في تلك الفترة يتزوجّن في سنّ مبكرة، لو كنت أنا مثلا في ذلك الوقت الَّذي ليس بالبعيد لوضعوني في خانة النساء العانسات، فالمرأة في سن الثلاثين عندهم لا تليق إلا بشيخ طاعن في السنّ أو أرمل له حشد من الأطفال، لم يكن لها مطلقا الحقّ في الاختيار، لم أكن أحب كلمة عانس، أجدها لا معنى لها، أعتبرها متطفّلة على لغتنا الجميلة،

والمشكلة أنّها لا تستعمل إلا عندنا في مجتمعاتنا العربية المتعبة، الّتي لا يكفيها أنّ العالم يحاربها بشتى السبل والوسائل فتقوم هي بمحاربة أبنائها وبناتها بهذه الحرب الباردة، حرب المعنويات والكلمات الجارحة، اليوم حتّى الشباب أصبح يعاني من العنوسة، رغم أنهم يملكون الخيار في هذا المجتمع الذكوري، تفرض العنوسة نفسها عليهم، ربمّا لغلاء المهور وربمّا لامتلاء عقولهم بأفكار غربية، جعلتهم يعزفون عن الزواج، تظلّ فرضيات لا نجزم بها، بينما أنا وأميّ نتوجه صوب سوق العصر استجابة لرغبتها، التقتْ أمّي بإحدى صديقاتها، كانت جارتنا في البناية المقابلة، لم تكن أمّي تحبّ مخالطة النساء في الحيّ، اختارت عزلتها وكنت أجدها تحب الصمت فلا تتكلم إلا نادرا، ربمّا كان الحزن الّذي سكنها بعد وفاة أبي، يأبَى تركها، فحتىّ الكلمات تخرج مبحوحةً مرهقة من جوفها، كانت هذه الجارة إنسانة على خلق وطيبة وما عرفت أمّي تحبّ التحدث إلاّ معها، كانتا متشابهتين إلى حدّ ما، أميّ فقدت زوجها في ريعان شبابه وشبابها، وجارتها ترمّلت في سن مبكرة أيضا، قبل عقدين من الآن، في فترة سجلها تاريخ الجزائر بالأحمر، سُمّيت "العشرية السوداء"، رحل زوجها منْ هذه الدنيا مقتولا، كما رحل الكثيرون منْ أبناء الشعب الجزائري، هناك منْ مات غدرا، هناك منْ قُتل ظلما، تشابكت الأحداث، وامتزج السواد بالبياض، وحتى الحق لم يعد ظاهرا لأنّ الباطل عانقه والتحم معه، أتحفظّ كثيرا في الحديث عن هذه الأمور، أخاف الحروب وطلقات الرصاص وبكاء الأرامل، ولا أتمنّى أبدا أن

تعود تلك الفترة السوداء إلى وطننا الحبيب، لقد شبع الجزائريون من الحزن والموت، هذه الأرض مازالت رطبة منْ دم الشهداء، أكثر منْ قرن من الاحتلال ثم جاءت عشريّة سوداء لم تدعنا نفرح طويلا بلذة الاستقلال.

وقفتُ أنظر إلى حوار بين امرأتين، كلاهُما تحمِل جُرحا وحنينًا..

- صباح الخير"لالة فارحة"

- صباح الخير سليمة كيف أحوالك؟

- الحمد لله، سمعتِ آخر الأخبار؟

- لا والله، ماذا حصل؟

- أتذكرين مشروع إخلاء القصبة وترميمها؟

- هذا على ما أذكر مشروع قديم ..

- هذا الأسبوع بدأتْ لجنة التعمير والإسكان في توزيع مفاتيح السكنات الجديدة.

- أيُعقل ؟ والله ما سمعتُ بالأمر..

- أظنّنا سيصلنا الدور الأسبوع القادم،

- إلى أين سننتقل؟

- إلى المدينة الجديدة علي منجلي.

- آه، والله لو كان الأمر بيدي لرمّمت غرفتي وبقيت فيها، لا تعجبني تلك المدينة.

- نسأل الله أن يجعل في ذلك خيرا ؟ أتريدين قضاء كل حياتِك في قفص، هداك الله.

- إن شاء الله خير والله خبر لم أكن أنتظره.

- بالفعل، كلّنا تفاجئنا. أنا أذهب إذن يا فارحة، أراك لاحقا، أزورك أو تزورينني وتتحدث.

غادرت جارتنا، كان ابنُها ينتظرها في سيّارته، بقيتْ أمّي تُلاحقه بعينيها، ليس حسدًا ولكنّها كانت تتمنّى لو كان عندها ولد، لدرجة أنها قالت لي ذات مرّة، ليتك كنتِ ولدا، وجود امرأتين لوحدهما في مدينة كبيرة كهذه يخلق الكثير من الصعوبات والمشاكل، لكنّنا كنا ومازلنا نفرض احترامنا على الجميع، ونحاول أن نشعر بالقوة في عالم دائما البقاءُ فيه للأقوى، كنّا نسير بخطى متثاقلة إلى سوق العصر، كان خبر انتقالنا للعيش في مكان آخر بمثابة الصّدمة الّتي لم نتوقعها، على الأقل الآن، بصراحة لم أكن أحبّ ذلك المكان، كانت قسنطينة المدينة ومازالت تأسر هذا القلب، أحبها ولا أظنّني قادرة على العيش في مكان آخر غيرها، لكنّ البيت الضيّق الّذي كنا نعيش فيه والأبواب المتلاصقة والغرف المتجاورة وكثرة الهرج والضجيج..

كلّ هذه الأمور تجعلني أتقبّل فكرة الانتقال منْ هذا الحيّ العزيز، وقد نرحل بأجسادنا وتأبى أرواحنا أن ترافقنا، هكذا هي الحياة تفرض علينا قوانينها، حيث لا اعتراض في محكمة القدر، الكل يأخذ نصيبه من الدنيا، سألت فارحة عن سبب هذا الحزن المباغت رغم علمي المسبق بالسبب، ردّت:

- سأشتاق إلى والدك، كيف سأجد هناك ريحَه؟ لا أقدر أن أحمل معي الهواء والجدران والذكريات.

أجد أنّ أمّي تتكلم بلغةِ امرأة شاعرة، مازلتُ أنا فقط منْ لا تجيد هذه اللغة، وجدتُني أتذكر أحمد وعبد الله، الرسالة، ماريانا، لوركا، الموت، الجنون، توقفتُ، شعور فظيع بالدوار، ألمٌ في روحي، نظرتُ إلى أمّي، كانت لا تزال تتكلم، لم أكن أستمع إلى ما تقول، صوتٌ ما يتكرّر في داخلي وكأنّ أحدا ما يناديني، التفتُّ خلفي وجدتُ تلك المرأة الّتي التقيتُ بها ذات صباح في المحطّة، كانت تنظر إليّ، أشعر بالخوف، أين أنت يا أبي ؟ ليتك كنت معي، لن يفهم أحد ما أشعر به الآن، ربمّا كنت أتوهّم، لكنّني أراها فعلا، إنّها تقترب منّي، حاولتُ الاحتماء بفارحة، تظاهرت أنّني لم أرها وأمسكتُ بذراع أمّي لنكمل طريقنا، رحتُ أغمض عيني، تركتُ أمّي تقودني، كنت أسمعها تتكلم وأنا لا أعي حرفا ممّا تقول، كنتُ أحاول الهروب منْ هذا الشبح الّذي يلاحقني، سألتُ أمّي إن كانت تحسّ بشيء غريب ما خلفنا، لكنّ أمّي كعادتها، أخبرتني أنّ هذا الوسواس قد يصيبني بالجنون، حتّى

أنّها لم تكلّف نفسها عناء فهم ما يدور بخاطري، كنتُ أشعر باختناق، كل شيء هنا مصاب بالربو، حتّى الهواء الّذي أتنفسه الآن، كنت أسير على أوتار قلبي الخائف، كلّ خطوة تجعله يئنّ بقوة، كنتُ أحسّ أنّ المرأة تقترب، وفجأة سمعت صوتا منْ خلفي ينادي باسمي:

- حكيمة سعاد

شعرتُ أنّ قدماي لا تحملانني، نظرتُ إلى أمّي، سألتها إن كان أحدٌ ما يناديني، فوجدتُ أنّ أمّي أيضا سمعتْ ذلك الصوت المبحوح الحزين، وبالتالي لم أكن أهذي، كان هذا حقيقة، تنفسّتُ الصعداء، بعد أن أزلتُ هاجس الجنون منْ فكري، كنت أغبط المجانين على حياتهم الخالية من المسؤولية والقيود ذاتَ حزنٍ وأسى، أمّا وقد جرّبتُ احتمال الوقوع في الجنون، لا أتمنّى أبدا أن تراودني أشباحه منْ جديد، لكن ما العمل وهذه المرأة تناديني؟ لا أستطيع إلاّ أن أسمع منها ما تريد قوله؟ هل من الممكن أن تكون عرفتْ بموضوع الرسالة؟ لكن كيف ؟ لا أحد يعلم بها سواي، ربّما الأرواح بعد الموت تتواصل.. منْ يدري؟ لا أحد منّا جرّب الموت وعاد ليخبرنا عن تجربته، تماسكي يا سعاد.. كوني قوية، ربّما تحقّقت أحلامك في دراسة هذا العقل المعقد، وما هذه إلا فرصٌ منْ ذهب لكي تبحثي في مفاهيمه الغامضة، أفكاري تُحارب بعضها، أقطاب سالبة وأخرى موجبة، يحدث تجاذب موجع، ما يلبث أن يحلّ محلّه تنافر واختلاف، حتّى قانون المغناطيسية يحضرُني الآن، وكأنّ هذا العقل

يأبى إلاّ أن يحشو تلافيفه بكلّ هذا الكمّ من الأفكار ليحقّق مبدأ الكلّ أو اللاشيء، منْ منطلق أنّ الطبيعة تنبذ الفراغ، ولذلك يريد العقل أن يمتلئَ كيفما اتّفق.

تنفسّتُ بعمق، نظرتُ إلى السماء وكانت قد بدأتْ تمطر، أحسستُ وكأنّ الله أرسل هذا الماء العذب منْ جوف تلك الغيوم الطاهرة فقط لتغسل قلبي وتشفيني منْ ذلك الاختناق، طلبت منْ فارحة أن تحتمي من المطر في أحد الدكاكين المقابلة للسوق ريثما أتحدث إلى تلك المرأة، أخبرتُها أنّها صديقتي منْ أيام الثانوية، التفتُّ إلى تلك المرأة، كانت ترتجف من البرد، لم تكن ترتدي معطفا وكانت تحمل كيسا استطعتُ أن ألاحظ أن به ملابس رجالية قديمة، نظرتُ إليها بحزن، وكأنني كنتُ أقرأ فصلا منْ رواية البؤساء في عينيها، ابتسمتُ في وجهها، لاحظتُ على ملامحها شعورا بالارتياح، كان المطر يبلّلها، لم أكن أحمل مطريّة لأقدّمها لها، لطالما كنتُ أحب إهداء الناس الفرح، ماذا تراني أستطيع أن أفعل لهذه المرأة المنكسرة القلب؟ لم أشأ أن أطيل لحظات التأمل البائسة هذه، وفتحت قوسا لهذه الكلام.. قوسا يوجع هذا الصّمت الطاعن في العمق.

- صباح الخير ، التقينا منْ قبل. أنا أعرفك.

- نعم أيتها الحكيمة، كانت تلك صدفة، أمّا هذه فلا، تعمدّتُ العثور عليك.

- ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك؟

- لقد تُوفيّ زوجي، قام بشنق نفسه، أنت تعرفين هذا.

- نعم أدري، آسفة منْ أجلك، إنا لله وإنا إليه راجعون، كان قدرا مكتوبا.

- لم آتِ إليكِ لألومك، لا دخل لك أنت ولا علاقة للأطباء هناك بانتحاره.

- أخبريني فقط.. كيف عرفت اسمي؟ عنواني؟ كيف خطر ببالك أنا لا غيري؟

- عندما التقينا أول مرة أحسسْتُ أنني سألتقيك منْ جديد، لكن مجيئي إليك اليوم لم يكن له علاقة بذلك اللقاء، أرأيت هذا الكيس؟

- نعم، ما علاقة الكيس بالموضوع؟

- هذه ملابس زوجي وأغراضه، جئتُ لأتصدق بها قرب مسجد "الكتّانيّة"، الأعزّاء عندما يرحلون رائحتهم تسبب لنا الموت البطيء، ولذلك وجب التّخلّص منْ كلّ ما يحمل عرقهم، وبصمة أجسادهم، من المفروض أنّني في العدّة الآن، لكنّ هذا الألم جعلني أخرج منْ بيتي، ليرتاح قلبي ثمّ أعتدّ بعد ذلك.

- أفهم مدى حزنك وأحس بك، أخبريني فقط، كيف وجدتِني؟

- أعرف أنّه ترك لي رسالة، وأعرف أنّها عندك؟

- ماذا؟...رسالة؟ أي رسالة؟

فقدتُ الكلمات، تقطّعتْ حبالي الصوتية، حاولت الإنكار، لكن يبدو أنّ هذه المرأة واثقة منْ حديثها، كيف عرفتْ هذا؟ شيء لا يُصدّق، صرتُ أبدو كلصّة، أنا الّتي في حياتها لم تأخذ شيئا ليس لها، صمتُّ عن الكلام واستسلمتُ لكلماتها.

- أيتها الحكيمة، أعرف أنّك إنسانة طيبة، ولولا هذا لما بحثتِ بين أغراضه وكلّفتِ نفسك عناء الدخول لغرفته، فقط أرجوك أريد الرسالة، على الأقلّ أقرأُها ثمّ أمزّقها، لا أريد شيئا آخر.

- لم أقصد أخذها، شيء ما حدث لي، ربّما لو تركتُها في تلك الوسادة، لكنتِ أنت منْ أخذ الرسالة وقرأها، أعتذر، لأنّي تطفّلت على حياتك.

- لا عليك، فأنا أصلا لم أكن لأسترجع أيًّا منْ أغراضه، ألا ترين أنّني سألقي كلّ ما يُذكّرني به بعيدا؟

أصابني فضول كبير وذهول، تمنيّتُ لو أنّها تخبرني كيفَ استطاعت أن تعرفَ بأمر الرسالة، لكنّني لم أشأ أن ألحّ عليها كثيرا، كنت موقنة أنّ الوقت كفيل بأن يطلعني على هذه الخبايا، وفي لحظة صفاء روحيّة قرّرتُ أن أفتح جيب الحقيبة وأن أسلّمها الرسالة، تلك الّتي

لم تكن قطّ لي، لكنّني عندما قرأتُها شعرتُ أنّ عبد الله كان يخاطبُ جانبا ما منْ شخصيّتي، أحسستُ به وبذلك الوجع الّذي كان يصبّه على الورق، وكأنّني كنتُ حاضرة معه، فتحتُ الحقيبة، شعرتُ بعينيّ تذرفان، ربّما اعتدتُ حملها معي، لكنّني تشجّعتُ وسلّمتُها إياها، كنتُ خائفة أن يبلّلها المطر، نظرتْ إليّ تلك المرأة -الّتي لم أجرؤ حتّى أن أسألها عن اسمها- بألم ولوم، لم أقدر بعدها أن رفع رأسي لأنظر في عينيها، لكنّها أراحتني عندما قالت :

- أتعرفين أيتها الحكيمة؟ نحن لا نحسُّ بحجم الفرحة الّتي كنّا نملكها إلا بفقدانها، ربّما لو عاد الزمن إلى الوراء لاستطعتُ أن أمنع عبد الله منْ الانتحار، هل أطلب منك شيئا؟

- تفضلي، بكل فرح وسرور.

-أنا امرأة فقيرة، في حياتي لم أسأل إنسانا صدقة ولا مددتُ يدي، كنت أشتغل بالحرف اليدوية الّتي أتقنها، وكنت أشعر بالفرح وأنا أرى أولادي يلبسون ثياب العيد الجديدة، ويشترون لوازمهم المدرسية، لم أكن قطّ ممن تطلب الصدقات لكنّي أطلب صدقة منْ نوع آخر منك الآن.

- أخبريني، سأساعدك إن استطعتُ ذلك، أي صدقة تقصدين؟

- أنا امرأة أميّة، لا أطلب منك أن تعلّميني القراءة، لا طاقة لي بذلك، لكنّي أتمنّى لو تقرئين لي هذه الرسالة، لا أُريد أن يقرأها أحد

آخر ثمّ تنتشر كالنّار في الهشيم، أنت طبيبة وأنتم لا تفضحون أسرار المريض، أرجوك دعيني أعرف ماذا كتب فيها.

-حسنا.. وتلك الشجرة المطرزة على الوسادة.. هل أنت منْ رسمها ؟

- نعم.. لكنّني لستُ منْ كتب الأسماء.. استعنتُ بأحد أولادي..

لوهلةٍ شعرتُ بالندمِ لتلك النبرة الّتي استعملتُها والأقرب ما تكون إلى التحقيق.. ثمّ صمتُّ..

كانت الأمطار تتهاطلُ بقوة، لم أشعرْ قطُّ بالبلل، كنت أعيش قصّة منْ نوع آخر، فلم أكن أسير على هذه الأرض أو أستظلّ بسمائها، نظرتُ إلى فارحة، وجدتُها تتحدث مع تاجر هناك وهو يريها بعض الألبسة في متجره، والتفتُّ إلى تلك المرأة المسكينة، كانت تحتضن الكيس الّذي كان معها وهي ترتجف من البرد منتظرة مني أن أوافق على قراءة الرسالة لها، طلبتُ منها أن نحتمي في مكان ما حتّى تتوقّف الأمطار، لكنّها رفضتْ، فلم يكن منّي إلا أن أخذتُ الرسالة منْ يدها وشرعت في قراءتها، كنتُ أقرأ سطرا ثمّ أنظر إليها، لأرى ملامح وجهها عند سماعها كلمات عبد الله الأخيرة، يا الله كم كان ذلك موقفا لا أُحسد عليه، سمفونية من الحزن والألم،أصوات البكاء تختلط بشهقات الحزن والأسى وعينان ترسمان لوحة للفجيعة مع كل كلمة كنتُ أقرأها، عندما أنهيتُ قراءة الرسالة كانت الورقة قد

تبللت وأصبحت كلماتها غير واضحة، وكأن نبوءة عبد الله تحققت فها هي رسالته يغسلها المطر، لكنّ زوجته الّتي كان يظنّ أنّها لن تبكي ها قد بكت السماء لبكائها، لم أقدر أن أنطق حرفا واحدا في هذه المسرحية المؤلمة، سلّمتُها الرسالة، تأمّلتُ وجهها.. كانت أشبه بالموناليزا، حتّى معالم الحزن لم تعد واضحة، كانت هناك لمسات من الجمال الغريب تحاول إخفاء الأسى بإيماءات من السعادة الوهمية. لم أعرف ماذا أفعل، ماذا أقول؟ هل أعانقها لأواسيها؟ هل أبكي لبكائها؟ هل أنصرف وأتركها؟ لكنّي قرّرتُ أن أعانقها، وجدتُ نفسي أبكي معها، كان الكلّ ينظر إلينا باستغراب، امرأتان تحتضنان الحزن وتشهقان بالبكاء في يوم ماطر، حتّى الجسور الّتي كانت تحيط بنا منْ كل صوب وقفتْ منبهرة، لطالما التقطتْ لنفسها صورا في مواقف كثيرة، شهدَت الحب والفرح، الحزن والانتحار، لكنّ لوحة الوجع هذه المبتلة بدموع المطر كانت لقطة نادرة، أطرقَت الجسور تستمع.. الكلّ هناك كان ينظر نحونا، وحتىّ أن امرأة عجوزًا توقّفتْ فقط لتقول لنا اصبرا وكفكفا دموعكما، فهناك رب لا يُظلم عنده أحد، ثمّ سمعتُ صوت فارحة تناديني وكأنّني بها تقول لي : ما هذه المهزلة الّتي تفتعلينها في الشارع؟

انتهت مسرحية الدموع وتوقّفَت الأمطار، نظرتُ إلى المرأة فإذا بوجهها استعاد قليلا منْ إشراقته، وكأنّها كانت بحاجة إلى قليل من البكاء لتشعر بالارتياح، شعرتُ أنّها ستغادر دون أن تخبرني كيف عرفتْ أنّ الرسالة كانت معي، وبالفعل، رأيتُها تغادر دون أن تنبس

بكلمة واحدة، بقيتُ أتتبَّعها بعينيّ، أي فضول تركتْ خلفها؟ لكنّها توقفّتْ فجأة وتوقّف قلبي لتوقفها، التفتتْ إليّ، ابتسمتْ ثمّ قالت:

- أنت إنسانة رائعة أيتّها الحكيمة، والّذي أخبرني عنك، لم يكن يبالغ أبدا في وصفك.

- أخبريني منْ يكون.. رجوتك..

كنت خائفة أن ترحل ولا يلاقيني بها القدر مجدّدا، ويظل هذا اللغز يقضّ مضجعي، رحتُ أتوسّل إليها بنظرات ذابلة وكأنّني أقول لها انظري إلى هذه الطبيبة المريضة، لا تتركيها تتعذّب أكثر، مدّي إليها يدك، أنقذيها منْ وهمها الكبير، أخبريها عن هذا اللغز الّذي لا يعرف حلّه إلا أنت، وفي لحظة شعرتُ أنّها استطاعت قراءة شفرة عينيّ، سألتْني إن كنت أريد معرفة منْ أخبرها، وقبل أن أجيب قالت لي أنّه صديقُ «عبد الله"، سألتها من؟ قالتْ: أحمد، ثمّ غادرت، لم تشرح لي شيئا ولم تكلّف نفسها أن تلتفتَ خلفها لتنظر إليّ، عاودني مرّة أخرى الشعور بالدوار، يا الله منْ يكون أحمد ؟ من المحال أن يكون أحمد المريض بالوسواس القهري، لكن إن لم يكن هو، منْ هذا الأحمد الّذي كان يراقب حركاتي ذلك اليوم ؟

لم أقدر أن أطيل التفكير أكثر، ذهبتُ إلى أمّي لأحتمي بها منْ نوبات التعب الوجداني الّتي كانت تلاحقني، لاحظتْ أمّي أن شيئا ما تغيّر في ملامحي وكأنّ سحابة خوف مرّت على روحي، سألتْني ما

سرّ ذلك البكاء؟ لم أجد جوابا مقنعا لكي أُسكِتَ به فضول فارحة، هذه المرأة الّتي لا تقتنع بسهولة، أخبرتُها أنّها فقدتْ زوجها وكنت أبكي لبكائها، عندها تأوهت فارحة، أحسستُ أنّها ندمتْ لأنّها سألتني عن السبب، كلما ذُكر الموت تتذكر أمّي والدي، وكأن معنى الموت كله لُخّص في فقدانها له، أكملنا تسوقنا أنا وهي ذلك اليوم، ولا أذكر أنّنا تحدثنا أو ضحكنا، كان في كل قلب واحدة منّا حزن عميق تحمله ولا تكاد تتنفّس منْ ثقله.

عندما عدنا إلى المنزل حاولتُ أن أنسى ما مرّ بي، لكن لم أقدر، أرى وجه تلك المرأة الحزين في كل الزوايا والأماكن، وحتّى صورة أبي حلّتْ محلها صورة أحمد، آه، لا أعتقد أن مخلوقا على وجه الكرة الأرضية ولا حتّى في المجرات الأخرى إن كان بها حياة يعاني ممّا أعاني منه الآن، وإلا لكنتُ بحثت عنه فقط لنبكي قدرا موجعا لم نقدر أن نفسّره، لوهلة تذكرّتُ أصدقائي.. شناز، مينارد ومحمد، تمنيّتُ لو كنتُ أستطيع الاتصال بهم، فقط لأبكي بارتياح ثمّ أغلق السماعة وأنام، لم أكن أحب إشعارهم بأني ضعيفة، قبل أيام تحدثت عبر الفايس بوك إلى مينارد، عرفت أنه سيتزوج، هو الآن يشعر بالسعادة، لا أقدر أن أعكّر صفوه، شناز اتصّلتْ بي، أخبرتني أنّها تعاني منْ مشاكل مع عائلة زوجها، أمّا محمّد أخبرني أنّه سيغادر لبنان إلى تركيا، لينخرط ضمن دورة طبية هناك. الكلّ له انشغالات ومشاكل واهتمامات جديدة، ربمّا آن الأوان أن أتحرّر من التعلّق بالماضي وأن أتخلّص منْ هذا الحنين الزائد إلى الأيام الفائتة، دائما تفاجئني الحياة بالفراق

والأسى وكأنّها تكافئني على حبّي وطيبتي بهذه الوحدة المفروضة الّتي تقتلني، الوحدة وضيق هذه الغرفة وبرودة فارحة هذا اليوم، والبرد الّذي يلفّ المكان، تراكمات كثيرة، أحتاج إلى تنظيف عقلي، تنفسي بعمق يا سعاد، نعم سعاد، أهذا اسمي ؟ صار يبدو غريبا، أظنّه مشتقًّا منْ السعادة، لكنّني لم أذق طعم الفرح منذ أن جئتُ إلى هذه الدنيا، لا أذكر أنّني ضحكتُ منْ أعماق قلبي ولا أنّني نمتُ أحلم أحلاما سعيدة، أريد أن أبكي، أحتاج إلى دمع حارّ يغسل خدّيّ ويطهّر جفنيّ، كم هي مؤلمة حياتي، ألا ترى هذا يا أبي ؟ لا تقل أنّني مأساويّة، لطالما احترفتُ التظاهر بالفرح على أمل أن تسخو الحياة به قليلا، لكنّها لم تحترم وجودي وقامتْ بصفعي مرارا، آه يا أبي، الموتى يسكنون المقابر، أما نحن فقبورنا نصنعها، كلّ يوم نقبرُ فيها أحلامنا ثمّ نعيد نبشَها لنجعلها تنتحر بعد ذلك، حاولتُ النوم لكن لم أستطع، ذهبتُ وتوضأتُ، صليّتُ ركعتين، كنتُ دوما ألجأ إلى الله في حياتي، وسبحانه عز وجل، جعل بيننا وبينه حبْلا متصلا، اللهم أحيِ قلبي إنّني أموت من الألم، تقطّعتْ بي السبل وتشتّت الأفكار، ارزقني راحة منْ عندك وفرحة كبيرة.. شعرتُ وكأنّ هذا السّواد الّذي كان يحجب النور عن عينيّ قد زال، نظرتُ إلى أمّي.. وجدتُها تحدّق فيّ ورأيتها تتمتم بكلمات لم أفهمها.

- أمّي ما بك؟

- آه يا سعاد، لقد سحروك يا ابنتي، صرتِ تتكلمين بمفردك، قلت

لك دعينا نأخذك إلى الشيخ ليقوم برقيتك، لكنّك أبيْتِ.

- لا أحتاج إليها يا أمّي، أحتاج إلى دعائك، أنا الآن أمر بقليل من التعب فقط.

- ألا ترين نفسك في المرآة؟ وجهك صار شاحبًا وكأنّ حزن العالم كلّه اصطفى ملامحَك، انتبهي لنفسك، ستموتين قهْرا وسأفقدك كما فقدتُ والدك.

- أمّي أرجوك، أنا بخير، لا تقلقي، دعيني فقط أرتاح قليلا.

- أخبرتك أن هذا التخصّص ليس باليسير، لكنّك عنيدة، عندما تصبحين مجنونة ما نفع النجاحات القديمة وما نفع شهادة الطب الّتي تحملينها؟

لم أردّ على كلماتها، هنّ هكذا الأمّهات يتحدثن منْ حرقتهنّ وحبّهنّ لأولادهنّ، كنت ألوم نفسي، لأنّي شعرت أنّني ربمّا لو أطعتُ رغبتها لما حصل كلّ هذا، ثمّ أيقنتُ أنّ القضاء والقدر لا مفرّ منه، أنا طبيبة أمراض عقلية، أحبّ مهنتي وأحب مرضاي وبعد انتهاء الإجازة سأعود إليهم، سأصير إنسانة قويّة، ولن أبكي بعد اليوم.

سمعتُ صوت الهاتف يرنّ، لم أعتد بصراحة على كثرة الاتصالات، قلّما أتصل ونادرا ما يتصل بي أحدهم، رغم كوني اجتماعية كما يقال عني، لم أكن أمنح رقمي إلا للأشخاص الّذين أعرفهم معرفة عميقة

ولزملاء العمل، لدرجة أنّني كنت أستطيع معرفة المتّصل دون قراءة اسمه على شاشة الهاتف المحمول، حملتُ الهاتف، كانت مريم..

- ألو، سعاد، كيف تشعرين الآن ؟

- أهلا مريم، أنا بخير حبيبتي، كنت محتاجة إلى اتصالك.

- هههه المدير سأل عنك وطلب مني أن أبلغك سلامه.

- هههه لا أصدق هذا أبدا، ربّما لا يقصدني.

- دعينا منه، ماذا تفعلين في إجازتك؟ هل منْ جديد ؟

- لا جديد، إنه الروتين يتكرّر، باستثناء خبر انتقالنا إلى المدينة الجديدة قريبا.

- ربّما بتغيير المنزل تتغير نفسيتك إلى الأحسن، منْ يدري؟

- إن شاء الله، كيف حال المرضى؟

- هه المجنونة، تسألني عن المرضى، آه تذكرتُ.. لقد خرج المريض الّذي بدأت في معالجته.

- ماذا؟ خرج؟ كيف خرج؟

- بعد آخر فحوصات قمنا بها له، قرر الطبيب المساعد أن يسمح له بالخروج، ما يعاني منه على الأغلب ناتج عن اضطراب في حالته

النفسية، ولقد نصحناه بطبيب نفسي.

- لكن ماذا عن حالة الوسواس القهري الّتي كان يعاني منها ؟ أعراضها كانت واضحة، تصرفاته تدل على ذلك، كلامه، ربمّا أخطأتم تشخيص حالته.

- هناك نوع من المرضى بمجرد تناولهم الأدوية والمهدئات تتغير حالتهم النفسية وربمّا يقلدون مرضى آخرين يرونهم، إنّه علم كبير عزيزتي، دراسة العقل ليس أمرا سهلا أبدا، هه بالمناسبة هناك أمر آخر.

- قولي ما هو ؟

- قبل خروجه، كتب رقم هاتفه على ورقة، وطلب منّي أن أقدمه للحكيمة سلاّمي، ربما يريد أن يشكرك.

- ماذا؟ هل الرقم معك؟ تقصدين أنه يريدني أن أتصل به؟

- هه لا أذكر أين وضعتُ تلك الورقة ولكن سأبحث عنها وأرسل لك الرقم في رسالة قصيرة، أتركك الآن أيتها المجنونة، هناك عمل ينتظرني.

انتهَت المكالمة، شعرتُ بسعادة لم أفهم سببها، لكنّ ما أعرفه أنّني ضحكتُ منْ أعماق قلبي، هناك شخص ما على هذا الكوكب الأزرق يبحث عنّي، لا يهمّ إن كان مجنونا، أو كانا مريضا نفسيًا أو

هاربا منْ جبل الوحش، كان يكفيني أن أراه مجدّدا وأستفسر منه عن أشياء كثيرة، قد يكون هو نفسه أحمد الّذي أخبر أرملة عبد الله عن الرسالة، لا.. أنا موقنة منْ أنّه هو، ربمّا رآني بطريقة ما، لا سبيل لإشباع هذا الفضول إلا بالتحدث إليه، كانت فارحة تنظر إليّ وأنا أبتسم كالمجانين وأحدّث نفسي، كنتُ أسمعها تستغفر الله وتقرأ البسملة، هكذا كانت تفعل كلمّا شعرتْ أنّ الوسواس قام بمهاجمتي، أذكر أنّني ذلك اليوم سهرتُ أنتظر رسالة مريم، وعندما لم أستطع النوم أخذتُ الحاسوب وفتحتُ صفحةً بحث على الشبكة العنكبوتية، كانت هناك كلمات مبهمة وشخوص كنتُ موقنة أنهم مجرد خيالات، لكنّني أردت أن أتأكد، أحيانا تخوننا ثقافتنا وأحيانا ندرك أنّنا لا نعرف شيئا كلّما تعلمّنا مصطلحا جديدا، أول ما بحثتُ عنه كان لوركا ثمّ ماريانا، لا أدري لماذا ؟ لكنّ هذين الاسمين بقيا عالقين في ذاكرتي منذ تلك اللحظة الّتي كان أحمد يهذي فيها بجنونه، تفاجأتُ عندما وجدتُ مئات الصفحات على شبكة الانترنت تتحدث عن هذا المدعو لوركا، نعم لقد كان حقيقيا، ولم يكن شخصا منْ نسج خيال أحمد، رحتُ أقرأ عنه فعرفت أنّه شاعر وكاتب ورسّام إسباني وُلد في غرناطة العام 1898 وأُعدم في بداية الحرب الأهلية الإسبانية منْ طرف الثوّار القوميّين وهو في سنّ الثمانية والثلاثين، اشتهر بمجموعة من المسرحيات والقصائد على غرار «عرس الدم» وقصيدة «شاعر في نيويورك»، ثم اكتشفتُ أن ماريانا الّتي يحبّها أحمد هي نفسها تلك الّتي كتب فيها لوركا قصيدته الأخيرة، تفاجأتُ حقًا، إذا كان

أحمد غير مصاب بأي مرض عقلي فلماذا كان يتصرّف بتلك الطريقة الغريبة؟ في حياتي لم ألتق بشخص يتكلّم بطريقته، بشخصٍ يملك فصاحته وأسلوبه في الإقناع، أذكر أنه جعلني أحفظ ذلك البيت الشعري الَّذي قرأه منْ مرّة واحدة، أنا الَّتي لم أكن أبدا أحبّ الأدب ولا الأشعار:

الموت للآتين منْ رحم الأسى.. أما الجنون فلا يموت ولا يغيب

أحببت هذا البيت الشعري، كنتُ أتلذذ بترديده، ربمّا لأنّني وضعتُ نفسي في خانة المجانين ورضيتُ بالجنون قدراً، منْ تكون يا أحمد ؟ ظننتُ أنّني بأخذي لهذه الإجازة سأرتاح من التفكير في كلماتك، لكن ما حدث العكس، كلّ ما يحدث يربطني دوما بجنونك، حتّى ذلك الأحمد الَّذي أذاع سرّ الرسالة لزوجة عبد الله، أشعر الآن وبكل ثقة أنه أنت، وها قد خرجتَ منْ ذلك السجن كما كنتَ تطلق عليه، خرجت منه ولا تزال تريد أن تكلمني لتتمّ أسطورة جنونك، لا أدري.. أأتصلّ بك، أم أطوي صفحة الوسواس إلى الأبد؟ أحسّ أنّك شاعر، بريق عينيك يشبه لحدّ كبير البريق الَّذي كان في عينيّ محمّد، أظنّ أنّ هذا البريق شيء مشترك بين الشعراء، لكن لا أفهم لماذا كنت تتقمّص الجنون؟ وتنتحل دور المريض بالوسواس القهري؟ كان لديّ إحساس غريب منذ أن قرأتُ ملفك في المصحّة، أحمد منصوري متخرّج منْ كليّة الأدب، يعاني منْ أزمة وسواس قهريّ حادّة ونوبات هذيان، ما جعل المريض يقدّم طلبا خطّيّا لدخول

مصحّة الأمراض العقلية، بالفعل شيء مثير للريبة، عادة لا يعترف المرضى بمشاكلهم العقلية، بالعكس هم ينكرونها ويحاولون أن يظهروا بشكل سويّ وتصرفّات عادية أمام النّاس، أمّا أن يأتي رجل بنفسه إلى المصحة بحجّة أنّه يعاني منْ مرض عقلي لا يمكنه أن يتعايش معه، هذا أمرٌ لا أستطيع فهمه أبدا، وحده أحمد يملك الإجابات عن هذه الأسئلة المبهمة، هههه أيها القدر الغريب، ما حدث لي في أقل منْ شهرين أظنّ أنّني لو كنت كاتبة أو روائية لجعلتُ منه مجلدّات، شيء غير منصف أن لا أحسن الكتابة، أنا الّتي سيكاد عقلي ينفجر منْ كثرة الأفكار وتصارُعِها، كم أحسد الأدباء والشعراء على هذا القلم الّذي يملكونه، ليتني أعيرهم عقلي ليأخذوا كل مشاريع الروايات والقصص الّتي أحلم أن أكون كاتبتها، لا يهمّ إن لم يذكروني في كتاباتهم، لطالما كنتُ أمقت الألقاب والرتب، فأنا لا أحبّ الشهرة، أعتبر أن المشاهير لا يعيشون حياة مستقرّة، هم دائما يبحثون عن تجديدٍ لهالة الضوء الّتي تلفّهم، يخافون زوال البريق، تحاربهم مواهبهم، تماما كما يحاربهم أعداؤهم الّذين يتمنّون سقوطهم إلى سفح الظلام، وهم لا يستطيعون العيش بعيدا عن عالم الضوء.

في حياتي لم أقرأ رواية ولم أطالع كتابا أدبيا، وحتى تلك الروايات الخارقة على حدّ قول عشّاق الأدب لم أشعر يوما بالفضول لقراءتها، أضعف الإيمان بالنسبة لي كان أن أعرف عناوينها وربمّا أحيانا أقرأ اسم كاتبها، أذكر أن شناز كانت منْ بين المعجبات المجنونات بالروائية أحلام مستغانمي، تحبّها بطريقة غريبة، تحفظ لها مقاطع

ونصوصا.. وحتى موضع الكلمة من الصفحة، كانت تسخر منّي وتقول لي: «شيءٌ مضحك أن لا تقرأ ابنة الجسور المعلّقة لأديبة مدينتها»، في ذلك الوقت لم أكن أعير هذا الأمر اهتماما كبيرا، أمّا الآن صرتُ أفهم جيّدا لماذا يملك الكتّاب كلّ هذه الحظوظ؟ لأن القارئ الّذي لا يجيد رفع القلم لكتابة سطرٍ واحد ممّا يختلج فؤاده يجد في بوح الكاتب فضفضة لهموم روحه، ربمّا يجد قصص فشله وإحباطه، أحلامه وطموحاته، حبّه وانكساره مذكورةً في حكاية ما، في قصيدة ما، في رواية ما، هههه أترى يا أبي ؟ صارت ابنتك تتكلّم لغة غريبة عنها وعنك، لكنّني لا أشعر بالحزن لأنّي بدأتُ أتعلّمها، يا الله يا أبي لو تدرك ما أعيشه الآن، شيء لم ندرسه لا في كتبٍ ولا في جامعات، إنه نفس القدر الّذي أخذك منّي منحني الآن شعورا غريبا يكبر في أعماقي شيئا فشيئا، أظنّني سأكتبُ لك ذات يومٍ يا حبيبي.

رنّ الهاتف، إشعارٌ بوصول رسالة قصيرة، كان رقم أحمد .....

تصبح على خير أبي....

لوحة الأعصاب المتناحرة

عمتَ صباحا أيّها الكون، عمتِ صباحا أيتّها المدينة الجميلة، دعيني أختلس النظر إليك من الشباك، وأنت تمدّين جسورك كي تستقبلي أشعّة الشمس التائهة، تلك الّتي لا تستقرّ إلا على حضنك الرحب، صباح يزفّ البشرى إلى قلبك ويبعث الدفء إلى الشرايين الباردة، صباح الخير أيّها الكون، دعني أرتشف قهوة الصباح بنكهة الفرح اليوم، إنّها إجازة، ألا يحقّ لي أن أتدلل قليلا وأن أشعر أنّ الحياة جميلة ولو كذبا؟ جامليني أيتّها الجسور، قولي أيّ شيء منْ شأنه رفع المعنويات في هذا البرد النوفمبري، امنحيني دفقة هواء ساخنة تخترق روحي، تعانق أوردتي، واتركيني أتعلّم قواعد السعادة الخرافية، أتعرفين ماذا سأفعل اليوم؟ سأقوم بفكّ كل تلك الطلاسم الّتي كانت تعبث بخيالي، سأحارب ذلك الوسواس الّذي بات يؤرقّني، وبعد أن أحقّق السلام الداخليّ والاطمئنان الروحي سأعود إلى عملي الّذي أحبّه، هناك في مكان ما منْ هذا الكون وعلى جبل شامخ يقبلّ السماء وتقبلّه الأرض، لا أدري إن كنت سألتقي بالوحش الّذي يسكنه، أم أنّ اللقاء لا يزال مؤجّلاً، لكنّني لا أشعر بالخوف، لن أبكي بعد الآن ولن أحتمي بالسراب وبأطياف الماضي، هههه أتعرفين أيّتها الجسور؟ أظنّ أنّ كل شخص على وجه الأرض قادر على خلق السعادة

والتّلذّذ بها، فقط يلزمنا أن نضيف قليلا منْ توابل الفرح على أطباق الهموم، آه، كم أحبّ نوفمبر، دائما يهديني في يوم مولدي سمفونية مطرية وغيمة ضاحكة وبعضا من البرد، كل أعياد الميلاد الماضية لم تترك بصمة بعد غيابها، إلا أنّها كانت دائما تضيف رقما للعدد الّذي يمثّل عمري، عدٌّ تصاعديٌّ نحو الفناء، لكنّ هذا اليوم، لن يكون عاديا أبدا، أنا موقنة منْ أنّني سأتذكرّه دومًا، الرابع من نوفمبر سنة 2013، سبع وعشرون عاما هو عمري الآن، كلّ عام وأنت بسعادة يا سعاد، لا أظنّ أنّ أميّ تتذكّر تاريخ مولدي، منذ وفاة والدي فقدتْ ذاكرة التواريخ فلا تحتفظ في سجلّ الأيّام إلا بيوم وفاته، هي هكذا الحياة تمنحنا وتأخذ منّا، أعتقد الآن أنّ أولئك الّذين يحملون أسماءً للفرح لا حظّ لهم من السعادة إلاّ هذا الاسم الّذي يحملونه، لكنّي أظنّ أنهم لحدّ الآن لم يكتشفوا هذا السّرّ، ولذلك يُطلقون على أبنائهم أسماءً سعيدة، ولولا ذلك لما أسمتني أمّي سعاد.. هي الّتي تدعى فارحة.

سأتّصل به، لكن لماذا أتصل أنا؟ سأتركه هو يفعل ذلك، أففف لكنّه لا يملك رقمي.. إنّه مريضي ويجب أن أتفقّده، هو أراد أن أتصّل به، ربمّا هناك أمر ما يريد إخباري به، أعتقد أنّني بدأت أفكّر بجنون، سأترك وساوسي جانبا، أحتاج إلى مساحة صفاءٍ في تفكيري، أعرف أنّ أحمد هو الوحيد الّذي بإمكانه مساعدتي لتخطّي هذا الأرق الوجداني الّذي أمرّ به، موضوع الرسالة وعبد الله وأمر الوسواس القهري والّذي تبيّن في آخر المطاف أنّه لا يعاني سوى منْ أزمة نفسيّة عابرة، أشعر أنّني كنت غبيّة، لا تفسير آخر لكلّ ما حصل، أجدني

أتناقض بشكل عجيب وكأنّني أقيّد روحي ثمّ أفكّ أغلالها، وأعيد ذلك أكثر منْ مرّة، وما تعلمّته خلال دراستي أنّ إعادة الحركة نفسها وتناوب نفس الأفعال دليل كافٍ يجعلنا نجزم أنّ الشخص يعاني من الوسواس القهري، منْ يدري؟ ربمّا شُفي منه أحمد وأصابني أنا...

نظرتُ إلى رقمه في هاتفي، كان يبدو غريبا.. تناوب بين الصفر والواحد، حتىّ في رقمه كان هناك التقاء عجيبٌ للأفعال القهرية، وكأنّ الكون كلّه يشارك معه في هذه الكذبة المرضية، أجدني أتحدّث بيقين، أنّهم الرجل بالكذب وانتحال شخصية مجنون، وأنا لا أملك ولا دليلا واحدا على هذه الكلمات الّتي أهذي بها، ربمّا لو اتصلتُ به فسيحدثني عن ماريانا منْ جديد، وبهذا سأتأكد فعلا أنّهم أخطأوا التشخيص وسمحوا له بالخروج من المصحّة دون أن يحققّوا جيدا في حالته، لا أملك خيارا آخرا لإطفاء هذه النار الّتي تحرق أعصابي إلا الاتصال به، إذن فلتكوني شاهدة أيتها الجسور على هذه المكالمة واكتبي على حبالك كلّ كلمة سيقولها، لتلفّي حول لسانه المشنقة إن تفوّه بالكذب، لا تتركيني بمفردي في هذا الفراغ المغلق، لطالما كنت أعاني منْ فوبيا الأماكن المغلقة، حاولي أن تمنحيني شجاعة تشبه شجاعتك، أنت الّتي جعلتِ لنفسك عرشا بين الأرض والسماء، معلقّة فوق صخور الغرانيت الباردة، تقفين في شموخ رغم العواصف والزلازل ومِن تحتكِ يمرّ وادي الرمال، يسير خاشعا في ظلّ هيبتك وقداستك، سأتصل به...

أنا أتّصل، نعمْ.. لقد فعلتُها، هناك هاتف يرنّ في مكان ما منْ هذه الأرض، أسمع صوت رنينه بوضوح، تمرّ الثواني فالدقائق لكنْ لا أحد يجيب على الهاتف، شعرتُ بسحابة إحباط باردة تصبّ مطرها على روحي، تركتُ الهاتف جانبا، لم يعد لي رغبة في معاودة الاتصال، ورحتُ أتأمل المدينة النائمة من النافذة العالية وهي تبعث أنفاسَها رسالةً تحملها الرياح إلى الربيع المسافر، ليعود منْ أجل إيقاظها.. أيْ أنت أيّها الربيع، أشتاق الآن إلى رائحة الجوري القسنطيني وإلى ماء الورد الّذي تصنعه فارحة فرحًا بقدومك، آه، أشمّ عبقكَ، أعلم أنّك قريب وسترزورنا ذات شوق، وعندها سأكون تخلّصتُ منْ قصة الوسواس وشَفيتُ روحي منْ هواجسها، رحتُ أتأمل المدينة وكأنّني أراها لأوّل مرّة، أكلّمها وتكلّمني، لم تكن أمّي موجودة معي في تلك اللحظة، وإلاّ لراحت تستعيذ منْ جنوني، هي دائما في هذا الوقت من الصباح تخرج إلى الملبنة القريبة منْ هنا لتشتري الحليب والزبدة، كانت تستعدّ باكرا للذهاب تفاديا لطابور الانتظار، وتعود محمّلة بابتسامة الانتصار.

وفجأة سمعتُ هاتفي يرنّ، لقد كان الرقم المجنون، الواحد والصفر يعلنان الحضور، بدأتُ أحسّ بقدوم رائحة الوسواس، لماذا خنتَ إحساسي أيّها الربيع؟

- صباح البنفسج أيتّها الحكيمة..

- صباح الخير، أنت أحمد؟

- نعم، لم أشأ أن أردّ على مكالمتك.. فقط لكي لا أكلّفك.

- وكيف عرفتَ أنّني أنا الّتي اتصلت؟

- هكذا المجانين، لهم حدس لا يخيب..

- أنت مجنون؟ ما فائدة هذه المسرحيّة ؟

- لو كنتُ أفهم المعنى الحقيقيّ للجنون لأجبتك لكنّني لا أستطيع حلّ لغزه.

- لماذا أردتَ أن أتّصل بك؟ ماذا تريد؟

- أحتاج إلى شخصٍ يسمعني، أريد أن أتكلّم.

- تريد أن تهذي بماريانا منْ جديد؟

- هههه ماريانا، أتذكرين هذا ؟ أنت عظيمةٌ أيتّها الحكيمة.

- العظمة؟ لا أجد في ما قلتُه شيئا يشي بها.

- لا بل أنت كذلك، وإن لم يكن ستتحقق نبوءة المجنون.

- هل لي أن أسألك؟ أعرف أنّ الجواب عندك.

- أنا أسمعك.. تفضّلي أيتّها الحكيمة.

- عبد الله.. هل كنتَ تعلم بأنّه سينتحر؟

- لا يمكنني الإجابة على الهاتف، أحتاج إلى أن أراك.

- تراني؟ أنا الآن في إجازة...

- هههه أعرف أنّك شعرت بالضياع، وتشوّشت أفكارك.

- و أنت ما أدراك؟

- سأخبرك بكلّ شيء، لكن رجاءً دعينا نلتقي...

شعرتُ بالخوف، كان صوته يبدو قويًا وكانت كلماته تأتي واثقة وصادقة، قلت في نفسي لا حلّ لكلّ هذه المشاكل النفسية الّتي أمرّ بها إلاّ بلقائه، لن يأخذ منْ وقتي أكثر منْ ساعة ولكنّني سأرتاح للأبد منْ هذا الصراع الفكري الّذي ينهك أعصابي، وبدأتُ أفكّر أين وكيف ومتى سأراه، لم أعتد على برمجة اللقاءات، ولا أعرف مكانا هادئا يمنحني السكينة للاستماع إلى ما سيخبرني به، في هذه المدينة تزدحم الشوارع والطرقات وحتى الأماكن التاريخية هنا، والّتي تمنحك بعضا من الهدوء النفسي، تخضع لعمليّات ترميم استعداداً لاحتضان تظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية للعام 2015، وفجأة تذكّرتُ معرض الكتاب الّذي سيقام غدا بقصر أحمد باي ووجدتُ نفسي أرسم موعدا ....

- حسنًا.. سأراك غدًا صباحا، هناك معرض للكتاب سيقام في قصر أحمد باي، ما رأيك؟

- أتصدّقين؟ والله كنتُ سأقترح عليك نفس الشيء، توارد أفكار ربّما.

- حسنا إذن.. أراك غداً، يفتح المعرض على الساعة التاسعة.

- شكرا أيّتها الطبيبة لكرمك ونبل أخلاقك.

- العفو....

- دومي بخير..

انتهت المكالمة، انقطع الصوت، ووقفتُ أنظر إلى انعكاس صورتي في زجاج النافذة القديم، ملامح غريبة ارتسمتْ على وجهي، بعض من الخوف وقليلٌ من الذهول وكثير من التساؤلات. أغمضتُ عينيّ، تنفستُ بعمق، لا شيء يا سعاد يستدعي كلّ هذا القلق الزائد، ستلتقينه غدًا وستفهمين منه كلّ تلك القصص المبهمة والألغاز الّتي بأس كشفها، وبعدها ستعودين إلى بيتك وتكملين إجازتك بفرح...

أعتذرُ يا نفسي كثيرا، أعرف أنّني عذّبتك ولم أمنحك تلك الفسحة الّتي تستحقينها، دائما أرهقك وأرهق الروح الّتي تقف إلى جانبك، وحتى هذه الأعصاب المسكينة، جديرة بأن أقدّم لها الاعتذار أيضا، الكلّ هنا يستحقّ مني الاعتذار، حتّى ذلك الرجل الأسمر الوسيم الّذي يحدّق فيّ الآن، يحتاجُ إلى أن أحملَ صورتَه وأقبّله، وأمسح الغبار عن ذلك الإطار القديم، بل وأشتري إطارا جديدا يليق بسموّه

الملكيّ في قلبي، أشتاق إليك كثيرا يا أبي، لدرجة أنّني كلّما ذكرتك تغيّرتْ نبرتي وملامحي وفاضت عيناي، كلّما ذكرتك أتذوّق طعم اليتم الّذي فُجعتُ به، تحتاج منّي أيّها الغالي إلى طقوس الولاء ومراسيم الحبّ، ضمّني إليك يا أبي وامنحني بعضا منْ ذلك السلام الّذي تنعم به الآن...

الباب يدّق، ها قد جاءت فارحة، دعيني أضمّك أنت أيضا يا حبيبتي وأعتذر منك...

لم أعتد التواجد بين كلّ هذا الكمّ من الكتب، أغلبها كتبٌ أدبية، روايات ودواوين، أسماء لأدباء لم أسمع بهم في حياتي، دراسة الطّبّ احتكرتْ عقلي وحواسّي ولم تترك لي مجالا لكي أتعلّم أشياءَ أخرى أو أطالع كتبا تُخرجني منْ هذه القوقعة الثقافية الضيّقة، كان المكان يعجّ بأولئك الّذين يحملون لقب «مثقّف»، لا أدري إن كنتُ متطفّلةً على موائدهم، لكنّني أحسستُ بسعادةٍ في تواجدي معهم، ورحتُ أحاول تمثيل دور المرأة المثقّفة الّتي تبحث عن كتاب معيّن بين مئات الكتب الموجودة، أقرأ العناوين بتمعّن، ويشدّني شكل الكتاب الخارجي، بصراحة لم أكن أعير اسم المؤلف اهتماما كبيرا، كان كلّ ما يهمّني أن أشغل هذا الوقت ولا أبدو كسائحة ضائعة تفتّش في الفراغ، كم تبدو باحة القصر جميلة، وهي تتزيّن بكلّ هذه الكتب والمجلّدات، حتّى الأسوار القديمة اكتستْ حلّة من اللّوحات التّشكيليّة المبهرة، ما جعلني أنظر بعمق وذهول إلى لوحة كانت

هناك بجوار غرفة الباي أحمد، شيءٌ ما كالخيال، لكن في هذه المرّة رحتُ أحاول قراءة اسم الرّسّام أسفل اللوحة، لم يكن واضحا، لم أستطع فهمه، يشبه لحدّ ما كتابة الأطباء على وصفات الدواء، كانت لوحة غريبةً ساحرةً، وكأنّها تعبّر عن ما يدور في عقلي منْ جنون، خطوط تتمايل لتعانق الفراغ ثم تعود لتحتضن بعضها، وظلال رماديّة تلفّ المكان، محاولة إخفاء قرص الشمس الّذي يحاول الولادة منْ رحم الجبل الفضّيّ الّذي يبدو شامخا في تلك الصورة، تماما كجبل الوحش، وأشكال أخرى لم أفهم معناها، لكنّني كنتُ واثقة منْ أنّها تلك الأفكار المتصارعة في قلب الرّسّام، أبتْ إلّا أن يكون لها حضور في لوحة إبداعه، كنت أنظر إلى اللوحة وأنظر إلى النخلة الّتي تتوسط حديقة القصر، ربّما كانت تحاول أن تقول لي شيئا، كم كانت باسقة وجميلة، لم يترك الدهر على سعفها وجذعها أخاديد الكبر رغم مرور قرابة القرنين من الزمن، ليتك أيّتها النخلة تحدّثينني قليلا عن سجنك مع هذه الأشجار الّتي لا تنتمي إلى فصيلتك السامية، آه لو تعلمين أيّتها النّخلة، أيّ جنون حملني إلى هنا؟ لا أظنّك تعلمين، أترين هذه اللوحة؟ نتقاسم أنا وهي مفهوم الانشطار الروحي، نبدأ منْ ذرّة واحدة لنصبح شظايا ونحترق بعد ذلك، ليتك كنتِ تعرفين منْ هو صاحب هذه اللوحة؟ زوّار هذا المعرض يتشاركون في أمور كثيرة، لكنّهم يختلفون عن البشر خارج هذا القصر، ما أشدّ غرابتهم وجنونهم! حتّى طريقة كلامهم، حركاتهم، نظراتهم، تشعرني أنّني في عالم مختلف تماما، بصراحة كنتُ أشعر أنّني دخيلة بينهم، لم أكن

أتقاسم معهم إلاّ هذا المكان وبعضا من الشرود...

كنتُ أتمنّى فقط لو جاء صاحب اللوحة، أريد أن أعرف إن كان ما فهمته صحيحا أم أنّه مجرّد وهم وخيالات، لكنّني أعتقد أن لكل شخصٍ منطقُه في تفسير هذا الفنّ، فهو ليس نوعا من الرياضيات أو العلوم الدقيقة، لوهلةٍ نسيتُ ما جئتُ لأجله إلى هنا ورحتُ أفكر في تلك اللوحة، إنّها الساعة العاشرة، عقارب الساعة تعلن تأخر ذلك الشخص اللغز عن الموعد، على كلّ حال لن أتصل به، سأنتظر نصف ساعة أخرى ثمّ أذهب، ربّما لا يزال يعيش ذلك الهوس الكبير ولا تزال ماريانا تلاحق أفكاره، ربّما هو الآن يقوم بنتف شعره والبكاء على ذكريات قديمة، لا أدري، أشعر بنوع مجهول من الغباء وكأنني أنا من اخترعته وقمتُ بتجريبه على هذا العقل المهووس بفلسفة الجنون، أف.. أين أنت أيّها المجنون؟

في هذه اللحظة الّتي كنتُ أكلّم فيها نفسي وألملم فيها شتات روحي، سمعتُ صوته، لا يمكنني أبدا نسيان هذه النبرة، لا تزال تتردد صدًى في ذاكرتي، لقد كان هو، كم يبدو مختلفا الآن، لا بل يبدو إنسانا آخر ولولا نفسُ تلك الملامح الغامضة ونفس الصوت الّذي أعرفه لما استطعتُ التعرّف عليه مطلقا، أقف أنظر إليه بفرح، يا الله... أي جنون كان يدّعيه هذا الرجل؟ بل أيّ طاقة جبّارة كان يملكها ليستطيع لعب دور المريض؟ لا أعتقد أنّ شخصا مثله، بهذه الهيئة المحترمة والوقار، تسمح له نفسه بأن يهينها وينسب إليها ذلك

الوسواس القهري، ما به؟ أنظر إليه ولا ينظر إليّ؟ ولماذا يلتف حوله كل أولئك المثقفين؟ هل يجبُ أن أنضمّ أيضا إلى تلك الحلقة لأحمل لقب مثقف؟ ماذا يفعل بينهم؟ يا أيتّها الأعصاب تماسكي، ستفهمين كلّ شيء بعد قليل، لكنّه لا يكلّف نفسه حتّى عناء النظر إلى ساعته اليدوية ليعلم أنّه تأخر أكثر منْ ساعة على موعده، لا يحاول حتّى البحث بعينيه عنّي بين هؤلاء النّاس، كان يكفي أن يرفع رأسه فقط لمراني واقفة أنظر نحوه، سئمت منْ هذه المواقف المحبطة، أظنّني أحتاج إلى قليل من التقدير، على الأقلّ لاستجابتي لرغبته ومجيئي إلى هنا، أظنّه لا يزال مريضا وكلّ ما قالته لي مريم عن أزمته النفسية كان مجرّد هراء، قد تعاوده الآن نوبة الحركات القهرية تلك، يا الله، لا أملك تفسيرا، وربمّا قد يكون شخصا ما يشبهه، يقال أن هنالك أربعين شبيها لكلّ واحد منّا، لكنّ لماذا يترك هذا الشبيه كلّ الكرة الأرضية ويأتي إليّ أنا ليسبّب لي الجنون؟ لا أعتقد، إنّه أحمد، لا غيره، هو يحاول استفزازي ، كما تستفزّني هذه النخلة بضحكاتها على هذا الموقف الّذي وضعتُ نفسي فيه وكما تثير غضبي هذه اللوحة الّتي تأبى أن تبوح باسم رسّامها، يكاد رأسي ينفجر، يجبُ أن أغادر الآن، ما هذه المسرحية المجنونة؟ لا بأس، لا أريد معرفة منْ أخبر أرملة عبد الله عن الرسالة، ولا أريد أن أفهم سبب جنون أو شفاء هذا الشخص الملمّ بالعقد، لا أحتاج منه إلى أي شيء ويكفي ما تعرّضتْ إليه أعصابي منْ حرائق، يجب أن أخرج الآن منْ هذه المهزلة... تبّا لك أيتّها الجسور، ليتني لم آخذ بنصيحتك..

و قبل أن أهمّ بالمغادرة، رأيته يترك المجموعة الّتي كان بينها ويتجّه نحوي وكأنه قرأ ما كان يدور في فكري، لم أجد ما أقول له، وقفتُ أنظر إلى هذا المجنون الّذي كنت أعالجه في جبل الوحش، وتذكّرتُ أنّني ذات يوم قرأت مقالة حول هذا النوع منْ المرضى، هم لا يشفون نهائيا منْ المشاكل الّتي يعانون منها ولكن يحدث لهم نوع من الاعتدال المؤقت والاستقرار العابر، وبالتالي فمجرّد إشعال فتيل الماضي قد يسبّب انفجارا نوويا في أركان النفس، وقرأتُ أيضا أنّهم إذا سنحت لهم الفرصة سيبحثون عن وسيلة للانتقام منْ أولئك الّذين كانوا يعاملونهم بشفقة على حدّ فهمهم، أعرف أنّ كل هذه أبحاث واجتهادات قد تخطئ وقد تصيب ويظلّ العقل لغزا عصيّا على الفهم، لا أعلم لماذا أتذكّر كلّ هذا الآن؟ في الوقت الّذي يجب أن أبحث فيه عن الكلمات المناسبة الّتي منْ شأنها فتح حوار ذي معنى مع هذا الشخص الّذي لا يزال ينظر إليّ وكأنّه فقد شيئا ما في ملامح وجهي، بنفس تلك الابتسامة المجنونة الّتي كان يستعيرها عندما كان في المصحّة، ثمّ تحوّلت تلك الابتسامة إلى ضحكة غريبة يحاول إخفائها، لكنّها انفجرت منْ بين شفتيه لتعلن جنونه المتجذّر في قلبه، ذلك الجنون الّذي لم يُشفَ منه قطّ...

- صباح جميل أيّتها الحكيمة، أليس كذلك؟

- أي صباح وأي جمال هذا؟ أتسخر منّي؟

- لماذا أنت غاضبة؟ أتمنّى أن لا أكون السبب...

- تلحّ على رؤيتي ثمّ تتجاهل وجودي.. أخبرني منْ تكون؟

- أنا أحمد، ذلك الشخص المصاب بالوسواس القهري.. قد قيل لي أنّني شُفيت، وعندما يتكلّم الأطبّاء يصمت المرضى للأبد، هذا أنا.. لا شيء تغيّر في فكري ومعتقداتي، ربمّا توقّفتُ فقط عن نتف شعري والهوس ببعض الأساطير.

- إذن، كنتَ تعلم منذ البداية أنّ كلّ كلامك كان جنونا؟

- الجنون عندما نتبنّاه ونؤمن به يصير جزءًا منْ حياتنا، هو طريقتنا المثلى للعيش بسلام وللنعيم بالخلود، ألا تظنّين ذلك؟

- لم يسبق لي أن جننتُ لأعرف.

- هه لو لم تكوني مجنونة لما أتيت إلى هنا...

- أخبرني فقط، ما حاجتك إلى كلّ تلك التّمثيليّة ؟ لماذا ادّعيتَ أنّك مريض؟ ما هدفك منْ وراء كل هذا؟

- ربمّا وجدتُ في ذلك المكان ملاذا وملجأً منْ هذه الحياة المتعبة، وربمّا كنتُ أحتاج إلى بعض من الوقت لأغسل روحي وقلبي وأنسى قليلا منْ أنا.

- من أنتَ؟

- أحمد منصوري... كاتب وشاعر ورسّام هاوٍ، وفي النهاية هو

إنسان يشعر بالضياع..

- كان ينتابني إحساس قويّ أنّك شاعر، لكن أن تكون رسّاما، هذا ما لم أتوقعه...

- فرحتُ كثيرا لأنّ لوحة «الأعصاب المتناحرة» نالت إعجابك.

- هل كانت هذه لوحتك؟ وكيف عرفتَ أنّها أعجبتني؟

- نظراتكِ إليها وذهولك وتركيزك على الدقائق فيها، كلّ هذه الأمور جعلتني أتأكد منْ أنّ الحكيمة سعاد معجبة بلوحة الرّسّام أحمد منصوري..

- دعني أعترف لك إذن، لوحتك أبهرتني.... كانت تترجم الكثير ممّا يدور في وجداني، لم أتوقّع أن أجد في معرض كتاب معرضا للرسم، أمّا الآن فأشعر بالذهول لأنّ اللوحة الّتي أعجبتني، رسمها المريض الّذي كنتُ أعالجه..

- شهادة أعتزّ بها، هههه أرأيتِ..؟ إنّ المجانين يحترفون مع الجنون أمورَ أخرى..

- لستَ مجنونا ولم تكن كذلك، لا تحاول أن تلعب هذا الدور..

- آه... أتعرفين؟ هذه اللوحة رسمتها قبل دخولي إلى المصحّة، كنت أعاني منْ ضغط نفسي رهيب، لدرجة أنّني اعتزلتُ كلّ الأمور

التي كنت أحبّ فعلها، تركتُ الشعر والكتابة محاولا تناسي هذه الروح التي احملها، ثمّ وجدتُ نفسي أرسم وأرسم، ربّما الجنون الذي كنت أعيشه جعل منّي أنجز أول لوحة لي وربّما ستكون الأخيرة

- لكنّك تبدو شخصا ذا أهميّة هنا، أرى الجميع يحتفي بك.. لا أظنّ أنّ لوحة واحدة تصنع منك رسّاما محترفا يحاول الجميع الظفر بكلمة معه....

- أخبرتك قبلا، أنّني شاعر وكاتب قبل كلّ شيء... هههه هؤلاء أصدقائي منْ الشعراء المجانين، يريدون الاطمئنان عليّ بعد طول الغياب، هههه لست معروفا، فبمجرد خروجي منْ هذا المكان لن أحد يعرف منْ أكون...

- هل كانوا يعلمون بأنّك كنت في مصّحة الأمراض العقلية؟

- لم أخبر أحدا بذلك، لكنّني كنت أقول لمن يسأل عنّي بأنّني أقضي عطلة خارج الوطن.

- ما حاجتك لكلّ هذا الكذب والتمثيل؟ أنت تتعبني كثيرا بحديثك هذا، أخبرني ماذا تريد منّي ودعني أنصرف....

- وأنت أيّتها الحكيمة، ألا تريدين إخباري بشيء؟

- أنا؟ لا أريد إخبارك بأي شيء، لكن أريد أن أفهم منك أشياء كثيرة

- مثل ماذا؟

- غموضُك وافتراؤك للجنون وخبايا روحك... قصّة عبد الله وتلك الرسالة، كلّ شيء فيك يحتاج إلى دراسة وتحليل، وأجدُني أقفُ عاجزةً أمامَ براعة تمثيلك.

- أيتها الحكيمة، ألا ترين أنّك تحمّلينني ما لا أطيق؟ أنا لست شخصا سيّئا كما تتوقعين، أنت لا تعرفين عنّي شيئا.

- أخبرني إذن، أنا هُنا الآن وكلّي آذان صاغية، هل كنت تعرف عبد الله؟ هل أنت منْ أخبر زوجته عن تلك الرسالة؟

- تعرّفتُ عليه في المصحة، لم أكن أعرفه قبل ذلك، رُبّمَا أفضل شيء استفدتُ منه في حياتي هو لقائي معه، تعلّمتُ منه أمورا كثيرة، علّمني كيف يمكن للمجنون أن يكون عاشقا بامتياز وكيف للروح أن تتحول إلى قربانٍ نقدمه لمن نحب، كان بمثابة ذلك الإلهام الّذي كنتُ أحتاج إليه لأكتب شيئا مختلفا.....

- أفهم منْ كلامك إذن أنّ كلّ ما فعلتَه كان مجرّد تمثيلية وضيعة، فقط لتحصل على لقب منْ ضوء مصطنع، النجاح لا يكون أبدا على حساب تلك الأرواح البريئة، أن يفقد المرء عقله لا يعني أن نجعل منْ جنونه ممرّا لأحلامنا، أتظنّ نفسك شاعرا يا أنت؟

- أجدك تتكلّمين بلغةٍ لا تشبه لغة الطبيبة الحنون، تلك الّتي

جعلتني أكتشف عوالمَ أخرى.

-أيّ عوالم وأنت لا تزال تتخبّط في آلاف العقد الّتي لن تمنحك شبه عالم؟ بالله عليك قل لي.. كيف عرفت أن عبد الله ترك رسالة؟

- آه... قبل انتحاره بيومين التقينا كالعادة في باحة المصحّة أين نُمنحُ فسحةً من الوقت للتنفس، والكلّ عندها يستعرض جنونه وطاقاته الجبّارة وأحلامه وبطولاته، أذكر أنّ عبد الله كان جالسا وحيدا على خلاف عادته، وكان حوله الكثير من المرضى يصرخون ويضحكون، اقتربتُ منه، سمعته يقول أنا لست مجنونا و يكرّر ذلك، اقتربتُ منه وجلستُ إلى جانبه وعندها وجدتُ أنّ المرضى الّذين كانوا يزعجونه انصرفوا، صدّقيني حتّى في تلك العوالم الغامضة فالوحدة تفرض عليك أن تتجرّع القهر...

- أكملْ، ثمّ ماذا حصل؟

- أخبرني أنّه ليس مريضا كما يعتقد الجميع هنا، وبأنّه اشتاق إلى زوجته وعائلته ويريد أن يرسل إليهم رسالة ومشكلتُه أنّه لا يجيد القراءة والكتابة، ثمّ سألني إن كنتُ أستطيع أن أكتب له تلك الرسالة، نظر إليّ بعينين واثقتين منْ أنّني أملك قلما وورقا في جيب معطفي، ربّما لم يتفطّن أحد منْ أعوان الأمن إلى ذلك وإلا لما تُرك القلم عندي فهو يعتبر سلاحا أبيض إذا وقع في يد مجنون....

- ثمّ ماذا؟

- أخرجتُ الورقة والقلم وكنتُ أحتفظ بالورق لأكتب الأشعار والخواطر الّتي تعتري قلبي بين الحين والآخر، رأيتُ أطياف السعادة تعلو وجه عبد الله، ثمّ نظر منْ حوله بخوف وقال أنّني يجب أن أكتبها الآن بسرعة وسرّيّة قبل أن يكتشف أمرنا أحد، وبالفعل استجبتُ لكلامه وراح يُملي عليّ وأنا أكتب كلّ ما يقول....

- كيف طاوعك قلبك أن تفعل هذا؟ المسكين لقد اعترف في آخر ... التي بأنه سيضع حدًا لحياته، كان عليك أن تخبر أحدًا ما، صدّقني أعصابي لم تعد تحتمل كلّ كلمة تقولها.

لا تتسرعي في الحكم عليّ.. عندما سمعتُ ما قاله عن أمر الرحيل من هذا الكون وكلّ تلك العبارات الّتي تودّع الدنيا إلى الأبد، تملكني خوف شديد.. رفضتُ أن أكتب، حاولتُ الفهم منه، لكنّه أخبرني أنّه سيرسل إليها هذه الرسالة فقط لتخاف عليه وتأتي لزيارته، وأضاف أنّه إن كان سينتحر فعلا فما جدوى الرسالة؟ صدّقيني لقد أقنعني...

- هذا ليس عذرا أبدا، ها قد انتحر المسكين وأنتَ كنتَ تلعب دور المريض باحتراف، ما فائدة أن تكون أديبا وتجيد العزف على أوتار الكلمات بينما تتقطّع أوتار روح بريئة بسبب جهلك وتفاهتك؟

- ربّما كنت مخطئا، لكنْ يشهد الله أنّي ما قصدتُ إيذائه.

- أخبرني فقط، كيف أمكنك استعارة ملامح الجنون والغباء تلك بعد يومٍ واحدٍ منْ انتحار عبد الله؟ أرى هذا أمرا مخالفا لفطرة

تهون... وتناقضا كبيرا بين كونك شاعرا وبين ما فعلته.

- آنسة سعاد رجاءً لا تعامليني كأنني إنسان سويّ.. أنا لست كذلك.. ولم أقل أنّني بريء من الجنون أو من الوسواس القهريّ الّذي بات جزءًا منْ حياتي، أظنّ أنّ الأقلام رُفِعتْ عن المجانين.

- لستَ مجنونا؟ لقد اعترفتَ قبل هذا بأنّ الكتابة هي منْ دفعتك إلى تقمّص هذا الدور..

- ألا يمكن لنا أن نكون مجانين وأن نحترف الكتابة والرسم فضلا عن الجنون؟ انظري إلى لوحة الأعصاب المتناحرة، أمعني فيها جيّدا، ستفهمين أنّ الّذي رسمها لم يكن يرسم إلاّ روحه وأعصابه..

- حسناً وكيف عرفتْ زوجته عن أمر الرسالة؟

- بعد خروجي.. أنا مَنْ بحثَ عنها وأخبرها أن زوجها ترك لها رسالة.

- كيف عرفتَ أنّها عندي؟

- لم أكن أحتاج إلى كثير من الذكاء لأعرف أنّها كانت في جيبك...

- أتريد إخباري أنّه إضافة إلى هذه العُقد الّتي تلتف حول روحك يمكنك أن تلعب دور العرّاف؟ توقّفْ أرجوك..

- كنت أراقب تحركّاتك، خطواتك، تلك الّتي توقفتْ عند غرفة أحمد، ولا تنسَيْ أنّ غرفتينا كانتا متلاصقتين...كان يكفي أن أغمض

عينيّ وأتّصل بعوالم الروح الباطنة لتخبرني أنّك تبحثين عن شيء هناك.

- اترك شعرك وجنونك جانبا، حدّثني بجديّة، أتريدني أن أفقد عقلي؟

- كنتِ مرتبكة عند خروجك من الغرفة، وبمجرّد وصولك إلى الدرج المؤدّي إلى مكتب المدير سقطت منك تلك الورقة، فوضعتها في جيبك منْ جديد، كنتُ متأكدا منْ أنّها نفس الورقة الّتي كتبتُها، ورقة مميّزة ذات لون ورديّ، لا عجب أن أربط كلّ تلك الأحداث لأفهم أنّ رسالة عبد الله كانت معك.

- لكنّ هذا لا يكفي لكي تجزم أنّني أخذتُ الرسالة....

- عندما كنتُ أحدثك عن الجنون والشعر، كانت عيناك تتوقّدان وخيالك يرحل بعيدا ثمّ يعود، كنت متيقّنا منْ فضولك الّذي سيدفعك حتما للبحث عن الحقائق، وبالفعل صدَقتْ فيك فرضيّتي...

- أرأيت كيف تتكلّم؟ تظنّ النّاس جميعا فئران تجارب لنظرياتك المجنونة..

- أنا لا أقصد هذا أبدا أيّتها الحكيمة، حاولي أن تمنحيني فرصة لأمسح الغبار عن صورتي في مخيّلتك.

- إن كان هذا ما أردتني منْ أجله، أظنّ أنه حان الوقت للمغادرة.

- ربّما حبّي للكتابة ما دفعني للقيام بهذه المغامرة المجنونة، لكن يشهد الله ما كان في نيّتي أبدا أن أتسبّب في إيذاء أحد.

- أكمل الرواية الّتي بدأتُ بها، لطالما كنتُ أحسد الكتّاب على هذه الملكة، أمّا الآن، أشعر بالفرح لأنّني لا أجيد اللفّ والدّورانَ في قوقعةِ الكلماتِ المبهمة...

- لكنّني أراكِ أكثر شاعريّة من الشواعر...

- ماذا تريدُ؟ لأنّني سأغادر..

- هذه مسوّدة لبعض كلماتي وأفكاري الّتي لم تنشر بعد، يسرّني أن تكوني أول منْ يقرأها، وهذا ديوان شعر طبعته قبل عامين كان باكورة أعمالي الشعرية، سأكون ممتنًا لك إذا قبلتِ هديّتي هذه.

- لكن... لستُ ممّن يمكنه إفادتك برأيه، أظنّ أنّني لن أفهم شيئا ممّا كتبتَ...

- خذيهِ فقط، يكفيني أن يكون معك، وأن تقرئي ولو جزءًا منه..

- والمسوّدة... ألا تحتاج إليها..؟

- متى تنهين قراءتها أخبريني، وسآتي لأخْذِها..

- حسناً، يجب أن أغادر الآن...

خرجتُ من المعرض، لم ألتفتْ خلفي، محتضنةً تلك المسوّدة وذلك الديوان الشعري الَّذي لم أقرأ عنوانه بعد، كان الكلّ هناك ينظر إليّ، ربّما تساءلوا منْ تكون هذه المرأة الَّتي ظلّ الكاتب أحمد منصوري يتحدّث إليها طويلا؟ كنتُ متعبةً، لا أظنّ أنّ أحدًا في هذا العالم قد مرّ بما مررتُ به في تلك اللحظات، تناقضٌ غريبٌ في مفاهيم الحياة، شعورٌ فظيعٌ بالتّعرّي الرّوحيّ، ألمٌ ممزوج بأمل في التّحرّر منه، كلّ هذه الكلمات لا تليق بالتعبير عمّا كنتُ أحسّ به، وعاودتْ نوبة الغيرة من الأدباء تنتابني، ليتهم يعيرونني قلمهم هذه الليلة فقط لأكتب كلّ أفكاري على الورق، وأحتفظ بنسخة منها على رفوف ذاكرتي المثقلة بالهموم، آه، كم أنتَ متعبٌ أيّها القلب، لطالما كنتَ محطّة لأولئك الَّذين يتركون آلامهم ويمضون بحثا عن أحلامهم، لطالما كنتَ تصلب شرايينك ليرتاح المتعبون منْ شقاء الحياة، ألا ترى أنّك أسرفتَ بقدْرٍ كبير منْ نبضاتك لكي تصنع لحْدًا يضمّ ما تبقّى منْ شغافك المحترق؟.. كانت شوارع المدينة تنظر إليّ بشفقة وكانت السماء ترسل مطرها بسخاء لتغسل روحي، وجدتُ نفسي أخفي تلك الأوراق في كيس كنتُ أخفيه في حقيبتي خوفا عليها من البلل، يا ترى ما الَّذي فعلتُه لذلك الرجل المجنون بالأدب ليبصُم ألمًا عميقا في وجداني؟ وحتى هذه الإجازة الَّتي أخذتُها لأرتاح منْ شقاء أفكاري بدأت تكتظّ بالتعب، كنت أفكر في الذهاب إلى جسر الشيطان الَّذي يفصل بين ضفّتي وادي الرّمال لألقي بكلّ

هذه الأوراق والقصائد أو أقوم بإحراقها مستعينة بطقوس الأبالسة في أسفل الأخدود هناك، وقفتُ أنظر إلى الجسر منْ صخرة عالية، طبيبةٌ تشعر بالبرد يلسع كلّ جوانب روحها، طبيبةٌ تحاول التنفس في عالم يختنقُ من الربو، لا أظنّ أن ما كتبه ذلك المجنون يستحقّ الحياة، سوف لن يلومني الكون على فعلتي هذه، تذكّرتُ في تلك اللحظات "فرانتز فانون" وكتابه "المعذّبون في الأرضles damnés de la terre» ذلك الطبيب الّذي أتشارك أنا وهو الكثير من الأمور، ليس فقط لأنّه طبيبٌ للأمراض العقليّة، بل لأنّه ورغم كونه منْ جزر المارتينيك وحمله للجنسية الفرنسية إلا أنه كان عاشقا لهذه الأرض الطاهرة، وأبى إلا أن يموت على أرضها مؤمنا بقضيّتها، وأن يُدفن في حضنها، كان يملك قلبا شبيها بقلبي لحدّ كبير، أنا واثقةٌ منْ هذا، هو الّذي آمن بالحرّيّة والعدالة واستطاع أن يترك أفكارا تخلد بعده، كم أحسدك يا فانون لأنّك تمكّنتَ منْ حجز مكان لك في الخلود، رغم أنّك لم تكن مجنونا كما كان يقول ذلك الّذي يُدعى أحمد، أظنّ أن كتابه عن أشقياء الأرض يضمّ الكثير منْ أشباهي، لا بل هو يتحدّث عنّي، ربّما لو كنتَ حيّا لساعدتني في تخطّي هذه الأزمة الّتي أمرّ بها، أنا أحتاج إلى علاج عاجل، وأريد راحة وهدوءًا، ليتني أكتب كتابا ناجحا ككتابك يصل إلى كل أرجاء هذا الكوكب الأزرق، ثمّ أغمض عينيّ لأغفو إغفاءتي الأخيرة، كلانا يحمل نفس الوجع، ذلك السرطان الّذي كان يسير في دمائك تمكن - بعد أن أرهقتهُ وقهرته طويلا - منْ حرمان الحياة منك قبل أن تكمل أربعة عقود، وأنا سرطاني يا سيّدي

يسير في أعصابي وخلايا روحي، سأموت يوما ما على يديه، ولا أدري إن كان سيذكرني الكون بعد رحيلي، أم أنّه يجب أن أكون مجنونة لكي أحصل على صكّ للخلود بعد غيابي.. أنا متعبة.. متعبة جدّا.

و انتهى اليوم ولم يحظَ جسر الشيطان بمسوّدة المجنون....

لن أعتذر أيّتها الجدران

سأكمل إجازتي بين حيطان هذه الغرفة، ما منْ داعٍ لخروجي، سيكون هذا أفضل، صرتُ أخاف من الصدمات الّتي قد تصيبني بنوبات الإحباط وأزمات الحزن العميقة، ربّما كان هذا أمثل حلّ كي أعيد حساباتي وأفرغ هذه الشّحنة الّتي تملأُ أفكاري، هههه لا تزال فارحة تستعيذ منْ جنوني ولا تزال تقرأ المعوّذتين كلّ ليلة واضعةً يدها على جبيني، هي مؤمنة بأنّي مصابة بالمسّ، لكنّها تغيّرت كثيرا في الآونة الأخيرة في تعاملها معي، لم تعد تنتقدني أو تعاتبني، أشعر أنّها خائفة عليّ منْ نفسي، منْ هذا الهوس الّذي يسكنني ومن ذلك الصراع الّذي يدور في أعصابي، هنّ هكذا الأمّهات، عندما يشعرن أنّ فلذات أكبادهنّ في خطر، يعلنّ حالة الطوارئ ويسخّرن كلّ طاقتهن لإحياء البراعم الذابلة فينا، أظنّني يا أمّي أحتاج إلى كثير من المطر، لكي تتفتّح بتلاّتُ روحي، أمّا الآن فأنا سنبلةٌ يابسة أنتظر نبوءة السحاب لكي يخضرّ ساقي...

أيّام نوفمبر تتشابه.. ولياليه طويلة بطولِ هذا الأرق الّذي يحارب غفوتي، حتّى الشمس تطلّ بخجلٍ وتسترق النظر منْ خلف السحابات الكئيبة، ماذا حدث يا نوفمبر؟ أو لم أكن أحبّك؟ أجدني اليوم أعاتب

بردك وأحترف التشاؤم، آه، كم هي حزينة جدران هذه الغرفة، منذُ أن وصلتْها أخبار انتقالنا إلى المدينة الجديدة، أعلنت الحداد، هي تعلم جيّدا أنّها ستصير آثارا يقصدها السّوّاح، ستصبح خالية من النبضات ومن لمسات الحياة، أظنّها ستشتاق إلى صوت فارحة، وهي تغنّي بعضا منْ موشّحات "المالوف"، وربّما ستشتاق إليّ أيضا وأنا أكلّم الجسور كلّ صباح وأناجي صورة حبيبي الأسمر، ستشعر بالحزن لأنّها لن تعرف تكملة القصّة الّتي بدأها مجنونٌ وأكملتْها طبيبته، لا تحزني أيّتها الجدران، سأزورك ذات هوس لأهذي بكلّ ما عشته بعيدا عنك، أو لا يقول شاعر:

نقلّ فؤادك حيثُ شئتَ منْ الهوى.... ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل؟

ويقول أحمد:

الموت للآتين منْ رحم الأسى... أمّا الجنون فلا يموت ولا يغيب

لا علاقة لهذين البيتين ببعضهما، لا أدري لماذا أقحم هذا الشّاعرَ المجنون في كلّ الجمل والعبارات، ربّما لأنّني آمنت بمنطقه، وتبنّيتُ نظريّاته التائهة، تلك الّتي تجزم بخلود المجانين، لكنّ هذا كان قبل أن أكتشف كذبه، وأنّ تلك المسرحيّة الّتي كان يؤلّفها، واختار فيها دور البطل وأحسن التمثيل، تلك المسرحية الّتي انطلتْ عليّ أنا فقط لم تكن إلا جسرا يعبره ليصل إلى مجدٍ يتمنّاه، آه، ما أشدّ جنونه !

وحتى تلك اللوحة الغامضة الّتي جسّدتْ ملحمة عقلي الباطن لا تزال معلّقة بين الجفن والرمش... أخبرني أيّها المجنون، هل تنتظر حقّا أن أقرأ مسوّدتك تلك، وأن أتلوَ أشعارك ؟ لستُ متأكّدةً منْ أنّني سأفعل.. أخاف منْ ذلك الوسواس الّذي يتربّص بي كلّما فتحت ذاكرتي على اسمك، ولكنّني سأتحدّى هذه الفوبيا وسأقرأ جنونك...أحتاج وقتا فقط، إلى ذلك الحين، لا يمكنك أن تتّصل بي ولا أن تطالبني بمسوّدتك تلك، لأنّني جعلتُ رقمك في اللائحة المحظورة وحتى الحيّ الّذي نسكن فيه سننتقل منه إلى مكان آخر، سيكون العثور عليّ هذه المرّة أمرًا صعبًا، فالمدينة الّتي سنذهب إليها ستجعلك تتيه كمن يفقد دربه في الربع الخالي، هههه هذا ما قيل لي عنها، أمّا عملي فقد أخذتُ إجازة طيلة شهر نوفمبر وأنوي أن أحصل على أيّام أخرى منْ شهر ديسمبر، أعرف أنّ هذا قد يخلق لي مشاكل مع المدير وربمّا لن يسمح لي بهذا، فنحن لا نملك الحقّ إلا في شهر واحد طيلة العام، لكن ماذا سأفعل؟ يجب أن أعيد ترميم الخلايا التالفة في روحي لإكمال مسيرة طويلة تنتظرني في حياتي... أرأيت أيّها الشاعر؟ لستَ وحدك منْ يحسن اللفّ والدوران، هذه المرّة سألعب أنا الدور الّذي أريد لكنّ الفرق بيني وبينك أنّني أحاول أن أجاريك فقط، أتعلّم منْ منطقك النّازيّ ذلك الّذي يفرض على منْ حولك كلّ العقد الّتي تحملها روحك، أمّا أنا لا أظنّ أنّني سأضطر بعد اليوم إلى ابتلاع الحزن منْ وراء أكاذيبك... لو كان الأدب شخصا ماثلا أمامك لصفعك على مرأى منْ أولئك الّذين يحترفون لغة

الجمال ويعشقون الكلمات الصادقة... لا، بل وربّما لأعدّ لك مشنقة تصنعها بيديك تماما كما فعلتَ بعبد الله، لتلفّها على روحك، لتصعد رويدا رويدا، تاركةً خلفها مسوّدة منْ ورق، تضمّ أحلاما زائفة بمجدٍ خرافيّ تُسلَّم بعد رحيلها إلى جسر الشيطان، أو يتخطّفها الغراب الأسود، ذاك الّذي يشبهك تماما في حبّك للبريق والزيف...

هل أخبرك شيئا إذن؟... الغربال لن يحجب الشمس.. لأنها ستنفذ رغما عنه إليه... والزبد ستلقيه الأمواج بعيدا، والأضواء الاصطناعية ستزول بانقطاع الكهرباء....ضع هذا جيدا في قاموس مفاهيمك....

كان خبر انتقالنا إلى المدينة الجديدة ينتشر كالنار في الهشيم، لم يظلّ أحدٌ في قسنطينة إلّا وتحدّثَ حوله، الكلّ هنا يستعدّ بفرح، إلا فارحة، لا يزال الحزن ينتابها كلّما ذكرَت المدينة الجديدة، أعرف أنّ أمّي امرأة عاشقة للماضي، مولعة به، يمكنها أن تقضي نهارا كاملا في استرجاع ذكرياتها والحديث عنها دونما كلل أو ملل، لدرجة أنّني أحيانا أتظاهر بالاستماع إليها بينما أشغل فكري بأمور أخرى، هي هكذا أمّي، لا تحبّ التجديد، تحارب بكلّ قواها منْ أجل إعلاء صورة النبض القديم على جدار قلبها، ولذلك فهي تعشق جدران القصبة، تعشق هذا الجدار الحزين الّذي يحمل صورة حبيبها، وحبيبي أيضا، لذلك لا ألومها إذا عافت روحُها كلّ معالم التّمدّن الّتي منْ شأنها أن تحرمها من استنشاق عبق الذكريات.. آه يا أمّي... تعالي وانظري إلى هذا القلب.. تعالي واكتشفي هذه الخبايا الّتي في أغواره، ربّما

استطعتِ بلمسة واحدة منْ كفّك الطاهر أن تعيديه إلى رحم الحياة الهنيئة....

أنا أيضا أشعر بالحزن الّذي تخالطه الكثير منْ المشاعر المتناقضة، لقد ترك ذلك المجنون فجوة عميقة بيني وبين نفسي، لدرجة أنّني صرتُ أجهل أحيانا شخصيّتي الحقيقيّة، وربّما شعرتُ بالانفصام فيها، لكنّ الشّيء الوحيد الّذي كنتُ موقنة منه هو أنّني لا أزال سعاد.. تلك الطبيبة العاشقة لكلّ ما هو تحدٍّ، لكلّ ما هو غموض، ولكلّ ما له علاقة بالعقل البشريّ...

سننتقل إلى مسكن آخر إذن.. سننتقل لكن ليس طواعية منّا فنحنُ مُجبرون.. الإنسان هنا لا يختار مكانا يعيش فيه إلى الأبد، قد تقع القرعة على الحيّ الّذي تسكنه، منْ أجل مشروع ما، فتُؤخذ إلى مكان بعيد، ليس لك الحقّ في الصراخ وفي افتعال الفوضى، لأنّك لست مجنونا باختصار، ولأنّ مسكنك أصبح في خارطة البنايات الفوضوية الّتي تشوّه جمال المدينة، أو ربّما لأن اليونيسكو اختارت الحيّ الّذي تعيش فيه رمزا منْ رموز التاريخ العتيق وبالتالي وجودك هناك يعتبر مخالفا لقانون الآثار الّتي تعشق الخواء، الخواء منْ كلّ شيء وحتى منك أنت، أيّها المتسكّع على هوامش الوجود، اختر لنفسك مكانا آخر وتنّفس ببطء لكي لا تُسمَع أنفاسُك...

قد تكون منازلنا بالقصبة هشّة لحدّ ما، والاكتظاظ بها كبير جدًا، لكنّنا كنّا نعيش حياة أفضل إذا ما قورنّا بأحياء أخرى، فنحن نتوسطُ

قلب المدينة القديمة، كلّ المرافق العموميّة قريبة منّا، لا نبذل جهدا كبيرا لقضاء حوائجنا، فالمدارس، والجامعات، البلديات والدوائر، المستشفيات والأسواق، تقع كلّها في المحيط الّذي نعيش فيه، لدرجة أنّني كنتُ أقصد جامعتي مشيا على الأقدام.. نعم لقد كنّا نُعتبر أبناء المدينة الأصليّين، ونلقّب بالبلديّين، نسبة إلى ترعرعنا في قلب بلدية قسنطينة.. وبالتالي كنّا نعيش أفضل بكثير منْ بعض الأحياء الّتي كانت منتشرة في قلب مدينة قسنطينة، كحيّ «فجّ الريح» و«محجرة الكساندرا»، اليوم لم يعد لهذه الأحياء أثر في خارطة المدينة، قبل عام من الآن قامت السلطات بترحيل أهلها إلى المدينة الجديدة، حتّى أنّ أولئك الّذين كانوا يحملون في بطاقات التعريف عنوان تلك المناطق اضطرّوا لتغييرها، ليس لأنّهم غيّروا سكنهم فقط، بل لأنّ أسماء تلك الأحياء لم يعد يُعترفُ بها، فهي لا تَنتسب بعد اندثارها لأي بلدية أو دائرة.. كانت أحياء قصديرية، يعيش أهلها حياة بسيطة، لم تكن الطرق معبّدة، فبمجرّد سقوط أولّ دفقات مطر تتحوّل المنطقة إلى مسبحٍ طينيّ كبير، رغم كلّ تلك الظروف القاسية والحياة الصعبة استطاع سكّان تلك الأحياء ترويض الطبيعة القاسية لصالحهم، متأقلمين معها، فكان أبناؤهم يدرسون بجدّ محاولين اللحاق بأحلامهم في تلك الفجاج الموسومة بقسوة الطبيعة والإحباطات البشرية.. أذكر أن إحدى زميلاتي في ثانوية "حيحي المكيّ" بحيّ باب القنطرة كانت تقطن بحيّ «فجّ الريح»، أذكر اسمها، كانت تدعى ليلى، لم تكن تتغيّب قطّ عن الحصص

الدراسية، كان العلم مقدّسا عندها، عندما كانت تصل إلى الثانوية، خاصّة في فصل الشتاء، الكلّ كان ينظر إلى قدميها لكثرة الطين العالق بحذائها، لم تكن تأبه قطّ، بالعكس.. تبتسم بثقة، ثمّ تقصد دورة المياه، لكي تنظّف ما علق بقدميها منْ أوحال، كنتُ أسألها لماذا يا ليلى لا تنظّفين حذاءك إلا إذا دخلتِ إلى هنا، كانت تجيب أنّها تخاف إذا قامت بتنظيفه خارجا فقد تتأخّر عن موعد الدخول إلى الثانوية وتضطرّ إلى العودة إلى «فجّ الريح منْ جديد» لتصحب معها أمّها المريضة لكي يُسمَح لها بالدخول... كنتُ أحبّ أن أستمع إليها وهي تحدّثنا عن المكان الّذي تعيش فيه، كنتُ أراه بصورتين، صورة شتوية أتذكّر فيها معاناة ليلى وتلك الأوحال الّتي كانت تغمر قدميها، وصورة ربيعيّة أتخيّل فيها حقول الأقحوان والأشجار الّتي بدأتْ تزهر إيذانا بولادة الربيع منْ ذلك الفجّ العميق.. أمّا ليلى فقد التقطتْ منْ هناك صورا للفصول الأربع، أقامت لها بمعرض روحها لوحات خالدة، من المستحيل أن يمحوها الدهر، حتّى الشتاء الّذي كنتُ أظنّها تحمل له كرها عميقا كانت تقول لي دوما أنّه يمطر في قلبها فيغسله منْ نجاسة الحياة، وفي الليل كانت الأمطار تعزف على صفائح القصدير سمفونيات الحبّ والجمال لتهدهد تلك القلوب المرتجفة الّتي تحتمي تحت سقف غرفة واحدة، لتشعرهم أن الطبيعة رغم قسوتها تمنحهم أمانا منْ نوع خاصّ...

لستُ أدري إن كانت ليلى سعيدة الآن بتواجدها بعيدا عن ذلك المكان الّذي كانت تعشقه، انقطعتْ أخبارها عنّي منذ حصولنا

على شهادة البكالوريا، كلّ ما أتمنّاه لها الآن منْ أعماق قلبي أن تكون بخير وأن تعيش حياة سعيدةً تليق بقلبها الطيّب وبأحلامها البيضاء بياض َروحها.. وأتمنّى أيضا أن يختفي الحزن منْ هذا العالم، وأن تعود البسمة لأولئك الّذين يحترفون التظاهر بالحياة وهم يموتون باستمرار، كما أتمنّى أن ينقرض البؤساء منْ على هذه الأرض، مازلت مؤمنة أنّ البؤسَ يحملُ معنى آخر وترجمة أخرى، لا أظنّ أن الفقر والظروف الصعبة هي الّتي تمنح الإنسان لقبَ بائس، أعتقد أن هذا المصطلح ينبع من اعتقاد المرء، من الصراعات الّتي تدور في قلبه، من التراكمات الّتي يتركها الدهر على أوردته وشرايينه، وعندما يطفح الكيل ويبلغ السيل الزبى يُكبّر القلب أربعا على نبضاته ويصلّي صلاة الجنازة على رحيل دقّاته، ويعلن نفسه بائسا، حزينا، منبوذا يعيش على هوامش الحياة، بعيدا عن سطورها الّتي أبتْ أن تمنحه السعادة، تلك الكلمة الخرافية الّتي لم يستطع عقله أن يتبنّاها فقرّرتْ أن تهاجر نحو قلوب أخرى بإمكانها استيعاب مفاهيم الفرح. كلّ هذه تظلّ مجرّد نظريّات أقوم بتأليفها كلّ يوم، كلّما شعرتُ أنّني بحاجة ماسّة إلى تفريغ هذه الشحنات السلبية منْ أعصابي، أتساءل. لماذا لا يقوم هذا الشاعر المجنون بالكتابة عن هؤلاء البؤساء والمعذبين في الأرض بدل ملاحقته للمجانين الأبرياء واقتحامه عوالمهم الغامضة؟ أتساءل لماذا لا يكتب عن أولئك الّذين يتمنوّن الجنون فقط لكي يتناسوا أحزانهم؟ أولئك الّذين يبحثون عن شمس مشرقة في يوم غائم وعن دفقة أملٍ تُرسَل لهم من السماء، أظنّ أنّ لهم الحقّ بأن

يخلّدهم التّاريخ وأن يتحدّث عنهم الأدب.. أعرف أن "فيكتور هيجو" كتب عن البؤساء في رائعته الّتي لم أقرأها لكنّني شاهدت رسوما متحرّكة جسّدتها جعلتني أبكي أيّام طفولتي، وأعرف أيضا أن "فرانتز فانون" كتب عن المعذّبين في الأرض، وبالتّالي فإنّ فكرة البؤس هذه متداولة منذ ميلاد الأدب، لكنّي أرى أنّ لكلّ أديب نصيبَهُ من البؤس الّذي يجب أن يخطّه على الأوراق.. بما أن هنالك حياة وأنّ هنالك بشرا فإنّ هنالك بؤسًا وقليلا من الفرح المجهول..

استيقظتُ صباحا على ضجّة كبيرة آتية من الشارع، رأيتُ فارحة تسترق النظر من النافذة، حاولتُ أن أطرد هذا النعاس الّذي مازال عالقا بعينيّ لكي أتمكّن منْ تمييز هذه الأصوات الّتي لم أقدر على فكّ طلاسمها، سألتُ أمّي ما الّذي يحدث؟ أشارت إليّ بيدها بالسكوت، وذلك لكي تتاح لها فرصة استقصاء الخبر اليقين، بقيتُ أراقبها وهي تطرق السمع وأرى ملامحها تتغيّر بين الحين والآخر، ولا يزال الضّجيج يرتفع والأصوات تتعالى ولكنّي لم أغادر فراشي، كان البرد ينبعث بقوّة لأنّها فتحتْ الشّبّاك لتسمع بشكل أوضح، وكان البرد بالنسبة لي بمثابة عامل مهدهد، فشعرتُ بإغفاءةٍ لم تتحقّق لأنّ أمّي وأخيرا التفتتْ إليّ بوجه صبوح وببسمة رسمتْها على ملامحها جعلتني أستبشر خيرا وقالت:

- والله لو لم يكن صباحا لأطلقتُ زغرودة يسمعها القاصي والداني.

- هههههه ما الّذي جعلك تشعرين بكلّ هذه السعادة؟

- اليوم يا بنيّتي ستأكلين" شخشوخة حارّة" احتفالا بهذا الخبر.

بصراحة شعرتُ بالاستغراب، يا ترى ماذا سمعتْ أمّي لكي

تشعر بكلّ هذا الفرح؟ لم أتوّقع في حياتي أن أراها مشرقة الروح هكذا، وأمّي لا تعِدُ 'بالشخشوخة الحارّة -هذا الطبق الّذي تبدع في صنعه- إلاّ إذا كان الأمر يستحقّ ذلك، حاولتُ أن أفهم منها فسألتُها وكلّي فضول لمعرفة السبب منْ وراء هذا التفاؤل...

- أُخبريني، يكاد يقتلني الفضول.. ما الّذي حدث؟

- هذه لجنة الحيّ، تقوم باحتجاج حول موضوع انتقالنا نحو المدينة الجديدة.

- ولماذا هذا الاحتجاج؟ لا أظنّ السلطات ستستجيب لطلباتهم.

- هم رفعوا احتجاجهم قبل يوم إلى الولاية، ويبدو أنّنا لن نغادر القصبة.

- لن نغادر القصبة؟

- نعم، سيقومون بترميمها وسنظلّ هنا.

- أمّي هل هذا حقًا سبب فرحتك ؟

- نعم.. تعرفين ما مدى تعلّقي بهذا المكان، حتّى والدك سيفرح بهذا الخبر.

- مبارك عليك هذا الفرح إذن... أمّا أنا بصراحة فقد برمجتُ نفسي على الانتقال إلى تلك المدينة،هههه يجب أن تبرمجي نفسك أيضا،

قد يتغيّر الأمر بين عشيّة وضحاها.

- يا لك منْ مشؤومة.. نحن هنا بأفضل حال، حتّى والدك أستطيع زيارته متى شئتُ، أتريدين أن تقومي بنفيي؟

- لا أبدا، كنت أمازحك فقط....

مرّ ذلك اليوم كأنّه العيد عند أمّي، وشعرتُ أيضا بالفرح لفرحها، مرّ وقتٌ طويل لم أر هذه الابتسامة الشّفّافة على وجهها، حتّى البيتُ صار منشرحا وتحوّل ذلك الضّيق الّذي كان به إلى اتسّاع.. ورغم أنّي لم أكن متأكّدة منْ صحّة الخبر الّذي سمعناه إلّا أنّني حاولتُ أن أؤمن به، منْ أجل أمّي، ولكي لا تصاب نفسيتها بالإحباط، لكن سرعان ما جاءت نسوة من الجيران وأكّدن لنا الخبر، وبدون شكّ زاد فرح أمّي، هي الّتي كانت تدعو دوما في صلاتها بأن لا تفارق هذا المكان الّذي يضمّ أجمل ذكرياتها وأكثرها حزنا، لا أدري لماذا يصرُّ الإنسان على التّمسّك بالمعالم الّتي تزيد منْ بؤسه ويعتبرها جزءًا لا يتجزّأُ منْ هوّيته ؟ لكنّني متأكّدة منْ أنّ هذا يدخل في تركيبته النّفسيّة..

هههه بما أنّنا لن ننتقل، لا داعي إذن للاعتذار منْ هذه الجدران ولا داعي لتقبيلها، لأنّها ستصحبني أيّاما أخرى وربمّا أعواما أضيفها إلى أجندة الزمن المجنون الّذي أحاول فهم أفكاره وحلّ المعادلات الّتي يثقل بها مذكّراتي.. أظنّني سأقرأ أعمال ذلك المجنون، لا أدري منْ أين سأبدأ، ليس منْ عادتي أن أقرأ كتبا أدبية، أخاف أن يصيبني

الملل وأنا أتجوّل بين السطور فأضطر إلى تغيير قبلتي إلى مكان آخر، بعيدا عن أفكاره المحشوّة بالوسواس القهري، لكنّني أحسّ أحيانا أنّني أحكم عليه مسبقا دون أن اقرأ له.. وتتصارع الهواجس منْ جديد داخلي، ثمّ أتنفّس بعمق ككلّ مرّة، كمحاولة لعقد هدنة بيني وبين نفسي، لكنّ هذه المرّة، لا أظنّ أنّني سأسمح لهذا التعب الروحي بأن يتمكّن منّي، سأقهره بأي وسيلة، فقط لأرتاح وأبدأ حياتي بنفس جديد...

كان هاتفي مغلقا، لا أريد أن أتلقّى اتّصالا منْ أيّ شخص، لا معنى للإجازة إلا إذا قطعنا جميع الاتصالات بالعالم الخارجي، لكن يا ترى منْ سيتصل بي خلال فترة غيابي هذه، مريم هي الوحيدة الّتي تتفقّد أحوالي، هي الّتي اعتادت أن تتّصل بي وتشعرني بأنّي لست وحدي في ذلك المكان المسمّى بجبل الوحش، أحسستُ لوهلة أنّها تحتاجني، شعرتُ بأنّها تحاول أن تكلّمني فتردّدتُ بين فتحي لهاتفي المغلق وبين إبقائه صامتا جامدا لا حياة فيه ولا رُوح، كنتُ خائفة من أن يباغتني صوت ذلك المجنون ليسألني عن مسوّدته، أو أن يقول لي مثلا : أنا في حيّكم، أين أنت الآن؟ لا أستبعد أن يقوم بهذا.. الّذي يخوض تجربة خطيرة كما فعل يستطيع أن يخلق المفاجآت وأن يقوم بأمور غير اعتيادية، لكنّني تحدّيتُ هواجسي وفتحتُ الهاتف، نظرت إلى علبة الرسائل، قلتُ علّ وعسى تصلني رسالة ما، لكن لم أجد أيّة رسالة، انتظرتُ ساعةً كاملة لربّما يرنُّ هاتفي، لكنّه لم يرن ولم يصلني أيّ اتّصال، شعرتُ بنوبة إحباط، هههه يعني لم يكن هناك أي معنى

لما فعلته، لم يتذكّرني أحد، حتّى شناز مرّتْ فترة طويلة ولم أسمع أخبارها، لولا مواقع التواصل الاجتماعي تلك لما عرفت جديدها، حتّى مينارد ومحمّد، انقطعت عنّي أخبارهما، لا أدري لماذا أتذكّرهم الآن، هل منْ المعقول أنّهم يفكّرون فيّ الآن كما أفكّر فيهم؟ بصراحة، لم يعد عندي الوقت للتفكير في أمور أخرى، صارت كلّ اهتماماتي محصورةً في دائرة مغلقة، أنطلق من الجنون الّذي أحاربه لأعود إليه مستسلمة، راضخة، أعتذر للجميع، لكلّ منْ نسيته أو تناسيته، سعاد لم تعد كما كانت، هي الآن تعاني وتبكي بصمت، ربمّا لو عرفتم ما أمرّ به لاستصغرتم الأمر، لكنّي أعتبر ما أعيشه الآن أكبر صدمة مفاهيميّة تعرّضتُ إليها في حياتي، فليسامحني الجميع...

في هذه اللحظة شعرتُ أنّني بحاجة ماسّة للاتّصال بشخص ما، كنتُ أنظر إلى أمّي وهي تروح وتجيء في الغرفة، تحاول أن تتّصل ببعض أقاربها، أولئك الّذين لا يظهرون إلاّ نادرا في المناسبات والجنائز، ربمّا هي تريد أن يشاركوها فرحتها، هذه الفرحة الّتي يراها غيرها مأساة وحزنا كبيرا، ثمّ وجدتها ترفع الهاتف وتبدأ بالحديث بصوتٍ عالٍ كعادتها، عندما رأيتها تتحدّث بتلك الحيوية عاودني ذلك الشعور الغريب بأن أتصل بشخصٍ ما، لأنيّ كنت محتاجة إلى الكلام، وخطرتْ ببالي مريم، أعتقد أنيّ سأرتاح بالحديث معها، سأكلّمها ثمّ أغلق الهاتف منْ جديد، حتّى تنتهي هذه الإجازة الّتي تأبى أن تنقضي، لا أدري لماذا تمرّ الثواني كأنّها السّاعات والأيّام؟ وأحسّ بأنّني أعذّب نفسي عند كلّ نفس وعند كلّ غمضة عين..

عندما ينتحرُ الشعراء

كلّ يوم يمرّ في منْ هذه الإجازة أجدني فيه أؤجلّ قراءة هذه الأوراق... لكنّني في هذا اليوم قرّرتُ أن أُخرِج تلك المسوّدة وذلك الديوان الشعري وأن أحاول القراءة ما بين السطور علّني أتمكّن منْ فهم هذه الشخصية الغريبة، سمعتُ ذات يوم أنّ الأدباء بإمكانهم إخفاء شخصيّاتهم تماما وأن يتقمّصوا الدور الّذي يريدون في كتاباتهم، لكنّني لا أستطيع استيعاب هذا، أعتقدُ أنّ الكاتب لا يمكنه أن يختلق أحاسيس من العدم أو أن يعتمد على خياله فقط فينسج أحداث قصّته، أظنّ أنّه قبل أن يمسح مصباحه السّحريّ ليستدعي خياله وجنونه يلقي نظرة على حياته ليلخّصها بطريقة قد تكون مختلفة ولكنّها استمدّتْ معانيها منْ تراكمات في قلبه، لو كنتُ كاتبة لا أظنّ أنّني أستطيع تهميش قلبي، لأنّني سأسكب كلّ ما فيه على الورق، شيء رائع أن يتخلّص الإنسان منْ كلّ أعبائه، بمجرّد أن يرى همومه مجسّدة أمامه..

وضعتُ كُرسيّا مقابل النافذة المطلّةِ على المدينةِ القديمة، حاملة أعمال ذلك المجنون، وكأنّني كنت أريد أن أصنع جوّا روحيّا يليق بالهلوسة الّتي سأقرأها، لم تكن فارحة موجودة، لا أدري أين ذهبت مع

الصباح الباكر، لأنّها لو كانت هنا لأسمعتني محاضرةً احتجاجا على هذه الطقوس الّتي تجلب الشؤم على حدّ قولها، كان مجرّد وقوفي أمام الشّبّاك طويلا وتأمّلي وشرودي يُعتبرُ جنونا في قاموس أمّي... شعرتُ بارتباك عندما حملتُ تلك الأوراق للمرّة الأولى، وجدتُ نفسي أنفض عنها غبارا لم يكن أصلا عالقا بها، لوهلة أحسستُ أنّ لها قداسة ما، حاولتُ عبثا أن أتعامل معها كأيّ مخطوطات عاديّة، لكنّ شعور الخوف منْ ما وراء الكلمات راح يتملّكني... ما بك يا سُعاد؟ ألا تزالين تخافين منْ كلماته؟ أنت الآن تعرفين جنونه وطريقة تفكيره، لا ضير إن قرأتِ بعضا منْ أعماله، هذا لن يؤثّر أبدا فيكِ.. رُحتُ أكلّم نفسي وأحاول إطفاء الحرب الّتي تنشب في جنباتها، ثمّ تأمّلتُ ذلك الديوان الشّعريّ، غلاف خارجيّ أسود، عنوان بخطّ أحمر، وكأنّه متحف للخوف والظلام، ولكنّ ما لفت انتباهي أنّه يحمل نفس عنوان تلك اللوحة الّتي صادفتها قبل أيّام في قصر أحمد باي «الأعصاب المتناحرة»، تساءلتُ.. ماذا يمكنني أن أقرأ في هذه الصفحات؟

وجدتُني أقرأ وأقرأ لكن لم أكن أستوعب كثيرا، كانت أشعاره شبيهة بالفلسفة الّتي لم توجد بعد، شبيهة باللغة المبهمة الّتي لا تُفكُّ طلاسمها، لكنّني كنت أستمتع بالقراءة، لم أكن أعلم لماذا، لكنّني كنتُ سعيدة بالتّجوّل بين صفحات الديوان، كنت أفهم سطرا وأجهل آخر، وشيئا فشيئا أحسستُ أنّني أنا منْ كتبتُ هذه الكلمات، وفجأةً لفتت انتباهي قصيدة كان عنوانها وسواس قهريّ»، لطالما تمنيّتُ

الكتابة حول هذا الموضوع، والآن بين يديّ قصيدة كتبها شاعر كان يدّعي الجنون، هو لم يعش قطّ تلك النوبة المرضية ولم يمرّ بأيٍّ منْ الأزمات العصبية الّتي مرّ به المرضى في المصحة الّتي كان فيها أو في أيّ مكان آخر حول العالم.. هو كان يدّعي ذلك فقط، لا أظنّه يملك الحقّ في الكتابة حول هذا الأمر، لا يمكنه ذلك إلا إذا كان مريضا أو إذا كان طبيبا خبيرا بالمرض، فأمّا المريض فيجسّد الحرب الداخلية الّتي تحرق أعصابه، وأما الطبيب سيكتب ملخّصا للحالة المرضية الّتي يراقبها والّتي تتطوّر أمام عينيه، نعم يمكنني كتابة أي شيء ولكن لا أستطيع كتابة بيتٍ واحدٍ كما يفعل هذا المجنون، وبالتالي هو يملك امتيازات كثيرة تؤهّله للكتابة، هو ممثّل بارع وهو شاعرٌ يملك قلما منْ ذهب، أمّا الأطباء فهم لا يحسنون الكلام ولا يجيدون البوح، والمرضى ينكرون مرضهم ولن يكشفوا أسرار دواخلهم لأيٍّ كان خوفًا منْ أن يُستعمل هذا ضدّهم وأن يتعرّضوا للعلاج... ولذلك سأقرأ هذه القصيدة علّني سأجد فيها تلك الكلمات الّتي فشلتُ في جمعها وتركيبها للحصول على جملة مفيدة..

وقرأتُ...

غادرْ لتحصد ما جنيتْ
الشّوك يملأ راحتيكْ
والكون يُقسم أنه
ما كان يعرف ما لديكْ..

هذا الَّذي مازال يشعلُ بالتوتر مقلتيكْ
وسواسك القهريّ يفلت كلَّ يومٍ منْ يديكْ
و تظلّ تنظرهُ وتنظرني
وتصرخ.. ما جنيتْ؟
يا سيّدي.. اَلكلُ يصفع وجنتيكْ
الكلّ يبصم همّه ختما عليكْ
غادرْ هناك إلى السماءْ
ستُساق أحزانٌ إليكْ
سيساق همّ الكائنات ودمعة تبكي عليكْ
يا سيّدي ما عدتُ أفهم ما لديكْ...

يا الله.... أحسّ وكأنّني أنا الَّتي كتبت هذه الأبيات، هو يتكلّم على لسان أنثى، ربّما لو كنتُ شاعرة لقلت نفس القصيدة، أظنّ أنّه ليس شاعرا فقط بل هو شخص ساحر، يستطيع الولوج إلى دواخل الروح، لكنّ هذا الديوان كتبه قبل سنتين منَ الآن، هو لم يكن يعرفني ولم أكنْ أعرفه، الظّاهر أنّ فكرة الجنون كانت تلاحقه منذ زمن بعيد، ربّما هذا ما أفهمه في كتاباته، لدرجة أنّه أطلق على ديوانه عنوان أعصابه المتناحرة... غادر هناك إلى السماء تساق أحزان إليك... يا الله ما أجمل هذه الكلمات! لها وقع موسيقيّ عجيب، تلامس القلب بصدق وشفافية، أتمنى لو استطعتُ مجاراتها بقصيدة مشابهة،

لكنّ الرياح تأتي بما لا تشتهي سفني، وأظلّ شاردة في هذا الأفق الّذي يلوح لي منْ خلال هذه النافذة الحزينة حزنَ روحي، وحُزنَ هذه الأحلام الّتي الّتي تطلّ بخوف منْ هذا الشبّاك البارد، خوفا منْ انتحار ما تبقّى منْ الأمل الدفين، آه ما أغرب نوفمبر! .. كلّ التناقضات الغريبة في هذا الوجود تحدث لي في هذا الشهر، وحتى اليوم الّذي ولدتُ فيه أبى إلا أن يكون نوفمبريا... لا أعرف ما الحكمة منْ كلّ ما يحدث لي منْ صُدف وحوادث، لكنّني مؤمنة أنّ كلّ ما أعيشه لن يمرّ هباءً في سجلّ حياتي، صوت ما ينبعث منْ داخلي يوحي إليّ بهذا، نحن نملك اليوم ولكن لا نملك الغد، وما نحن عليه اليوم ليس بالضرورة أن نعيشه غدا... آه أيّها المجنون، أعرف الآن لماذا قصدت تلك المصحّة، كنتَ تريد أن تجرّب الجنون الّذي تبنّيته في قصائدك، محاولا تصديق الخرافات الّتي كنتَ تؤلّفها، وفي النهاية أنت لم تصدّق شيئا منْ ذلك وانطلَت الكذبة عليّ، أنا الطبيبة الّتي مازالت تبكي كلّما رأت شخصا يئنّ على فراش الألم وكلّما هبّت الرياح حاملة مناجل الذكرى لتحصد براعم التناسي... فكيف تريدني أن لا أصدّق مسرحيّتك؟ نعم لا أزال ضعيفة، لن أنكر هذا أبدا، لا أزال ضلعا معوجًّا كغيري منْ بنات حواء، لكنّني أتمنّى أن أصير قويّة فقط لأستطيع مواجهة أولئك الّذين يحترفون الكذب ويعشقون التخفّي خلف الستائر المزيّفة...

نعم.. جميل هو ديوانك أيّها الآتي منْ مملكة الشعراء البعيدة، تلك الّتي لم أزرها يوما ولكنّك زرتني دون سابق إنذار، وجعلتني أحلم أن

أفكّ شيفرة العالم الغامض هناك.. لا شيء يستدعي أن أردّ الزيارة، ربّما إذا حاولتُ الولوج إلى عالمكم سوف لن أتمكّن من الرجوع إلى موطني الّذي أحبّه، سأدور في حلقةٍ مفرغة وسيتلقّفني الفراغ الّذي كنت أهرب منه ثمّ أستسلم للصدى ليعزف سمفونية الغربة على أوتاري المتعبة.

رنّ الهاتف، لم يكن هاتفي، لأنّني أخرست صوته ومنحته إجازة كما منحتُها لنفسي، كان هاتف أمّي، ليس منْ عادتها نسيان هاتفها، ولم تخبرني إلى أين هي ذاهبة، تركتُ مكاني وذهبتُ لأردّ على المكالمة، كان صوت فارحة تتحدّث منْ هاتف خالي... خالي الّذي لم أسمع عنه منذ زمن..

- ألو..سُعاد حبيبتي، هل أنت في المنزل ؟

- نعم ، وأين سأكون؟

- لأنّي قد أتأخرّ في العودة.

- لماذا؟ أين أنت الآن؟

- أنا في منزل خالك، هو مريض قليلاً.

- لماذا لم تخبريني ؟ كنتُ ذهبتُ معك.

- لا عليك، هو يشعر بتحسّن الآن.

- حسنا، بلّغيه سلامي وتمنّياتي له بالشفاء.

- أغلقي الباب جيّدا ولا تفتحي لأيّ أحد، وإن كان الشّبّاك مفتوحا قومي بإغلاقه..

- هههه إنّه مفتوح... لا عليك أنا أحبّ البرد.

- افعلي ما أمرتك به.. ولا تشردي كثيرا وانتبهي.

- هههه حسنا.

أمّي تعلم جيّدا طباعي، حتّى وهي بعيدة عنّي يمكنها استنتاج ما أقوم به، لكنّ ما أذهلني تغيّرها هذه الأيّام، لقد أصبحتْ أكثر سعادة وتفاؤلا منذ تفنيد خبر انتقالنا إلى المدينة الجديدة، حتّى أقاربها الّذين لم يقوموا بزيارتها منذ زمن بعيد أصبحتْ تسأل عنهم وتزورهم.. هذا الخال بالذات لا أذكر أنّني رأيته أكثر منْ مرّتين في حياتي.. أشعر أنّ أمّي تبحث عن الدفء العائليّ في كلّ مكان، تتعلّق بأيّ شيء ينفي عنها شعور الوحدة، أتفهّمها، فمع ابنة مثلي لا تتكلّم إلا نادرا تصير الحياة شبه مستحيلة، محيط يلّفه الصمت وتحتلّه أطياف الماضي وأحضان الذاكرة، فأنا لستُ كثيرة الكلام إلاّ مع نفسي، تلك الّتي لو نطقتْ لأمرتْني بالتزام الصمت ما حييتُ.

سيطول غياب أمّي إذن، وهذا ما سيمنحني فرصة لإكمال قراءة هذه الأوراق الّتي تستفزّني... مسوّدة غير معنونة، مكتوبة بخطّ جميل لا يشبه أبدا خطّ الأطباء المبهم، أظنّها رواية أو ربّما مسرحية، تبدو طويلة نوعا ما، لكنّني اعتدتُ على مطالعة كتب طبّيّة أكبر بكثير في

مُددٍ قصيرة... يا الله ما أجمل هذه النسمات الّتي تتسللّ لتلاعب وجهي وكأنّها تمنحني طاقة أُخرى ونفسا جديداً لمواصلة القراءة!

وقرأتُ....

كان حوارا بين شاعر وفتاة تحاول منحه فرصة في الحياة.....

- أتعرف أمرا؟.. لا يزال هناك بقايا منْ مملكة الشعر الغابرة وصولجان قديم وقيثار يهدهد الروح... تركتُها جميعا لك... يمكنك أن تكون ملكًا... وأن تتربع على عرش الكلمات.. ما رأيك؟

- لا أعتقد... لأنيّ سمعتُ البارحة صوتا ينبعث منْ أعماقي.... أتريدين أن تعرفي ماذا قال؟

- ماذا؟ تكلّم، أنا أسمعك، وأفهمك.

- قال:

لقد أصبح الشعراء يهاجرون منْ هذا البلد... أتدري؟ ولا تزال واقفا تتأمّل مواجعك...الْحَق بركبهم.. قبل أن تنبذك الأرض منْ بعدهم... الْحَق بهم..أم أنك لا تزال تطمع في لقبٍ بضوء مصطنع؟

- إنّه مجرّد هذيان.. إلى متَى وأنت تدفنُ روحك؟

- هههه روحي؟ أنا دفنتُ قصائدي وأشعاري جميعها، لا حاجة لي إلى هذه الروح..

- تلك الروايات الّتي أحرقتَها والقصائد الّتي دفنتَها جرائمُ لا تُغتفر....حتى سادة الحروب وقادة المجازر تركوا بعدهم كتاباتٍ تخلّد جنون العظمة فيهم.

- سيخلّدني تاريخ الشقاء، بعد رحيلي ابحثي عن أشهر مؤرخ للألم واسردي عليه تفاصيل حياتي، سيفرح كثيرا بهذا النوع النادر من الحزن.

- لكنّني لن أفعل.. لأنّك ستظلّ هنا وستكتب تاريخ مجدك وسيصفّق الكون فرحا بك وستصلُ إلى جنّتك.

- آه... عندما كانت الطرق تتشابه... كانت كلّها تأخذ إلى تلك الجنّة.. كل طريق وكلّ اتجاه.. كان يقود إلى بقعة منْ ضوء ومن فرح...اليوم اختلفَت المسالك والسبل وضاعتْ مفاتيح الخلاص.

- لماذا التشاؤم ؟ انظر منْ حولك. ألا ترى أنّ الربيع يستحقّ منّا أن نفرح بقدومه ؟ انظر إلى ذلك الحسُّون الّذي يعتلي ذلك الغصن، ألا ترى أنّ الجمال موجود حولنا؟ ألا تشعر به؟ كلّمه، اكتب شعرا فيه..

- أخبرني أيها الحسّون.. لماذا تجمَّدَت الأرواح حزنا.. أخبرني.. لماذا لا تزال القصائد ترتعش في مواسم الربيع؟ ولماذا لم يتفتح النسرين بعد ؟ أخبرني قبل أن تهاجر منْ جديد وقبل أن تعود الشمس إلى مخدعها.. أخبرني..

- أنا لم أطلب منك أن تبكي على أطلال قلبك.. طلبتُ منك أن تتخلّصَ منْ هذا الحزن الّذي يتغلغل في عروقك..

- لكنّ الحزن قدري ولا يمكن لأيّ شخصٍ مهما حاول أن يتخلّص منْ قدره، ألا تدركين هذا؟

- ما أدركه هو أنّنا ما دُمنا نتنفّس نستطيع تغيير الأمور منْ حولنا لصالحنا، يمكننا أن نصنع شرابا حُلوا من الليمون، ألا تجد هذه فكرة جميلة ؟

- هههه مشكلتي أنّ الليمون عُصر في أوردتي، وهو الآن يحرقها، لم يعد هناك مكان للسكّر في دمائي..

- منْ أين تأتي بكلّ هذه التعاسة؟ لكأنّك أنت من اخترع الحزن..

- الشعراء عندما يلبسون حزنهم الدائم فإنّهم يعلنون رحيلهم عن هذا الوجود.

- هناك غيبيّات لا يعلمها إلاّ الله، لا تستطيع أن تعلم متى وأين ستنتهي أنفاسك.

- ربمّا... لكنّني أستطيع تحديد المكان والوقت بنفسي...

- استعذ بالله، ألا ترى أنّ كلامك هذا أقرب ما يكون إلى الجنون؟

- يستطيع المجنون أن ينهي حياته متى شاء، يستطيع أن يقصد

جسرا عاليا تماما مثل هذا الّذي نقفُ عليه الآن ويُلقي بنفسه نحو الغياب.

- الانتحار ديدنُ الجبناء، أولئك الّذين لا يحسنون النظر بثقةٍ إلى عيون الحياة، هم يخافون منْ ظلالهم ومن صدى أصواتهم..

- أنا لستُ جبانا ولستُ شجاعا أيضا، لا أعرف إلى أيّ فريق أنتمي، أنا شاعر فقط... شاعر له قلب لم يعد يحسن النبض.

- لماذا تعذّب نفسك؟ أنت تحترف الشقاء، تتلذّذ به، ابحث عن الجمال منْ حولك، لديك أشعار جميلة، أنسيتَ أنّك كنت تمنح النّاس الأمل ؟ أنت أيضا تستحّق نصيبك من الفرح.

- أتعرفين زهرة الكوكب البنفسجي؟

- لا أبدا.. أين توجد هذه الزهرة؟

- هههه لم تعد موجودة...

- ما الّذي جعلك تفكّر فيها؟

- لقد كانت امرأة، أنثى منْ ربيع وفرح، وكان لها بوح ملائكيّ وقصائد ناعمة.

- كانت شاعرة إذن؟

- نعم، كانت تدعى «صافية كتو» شاعرة من الجنوب الجزائري، هي

تشبهني كثيرا ولكنّها أكثر منّي شجاعة..

- ما الّذي فعلته؟

- ألقتْ بنفسها من الجسر؟

- أيّ جسر؟ أتقصد جسر سيدي مسيد الّذي نقف عليه الآن؟ وهل ماتت؟

- ليس جسرنا هذا.. جسرٌ بالعاصمة اسمه "تيلملي".. ورحلتْ زهرة الكوكب البنفسجي في زهرة شبابها،أتعرفين؟ الآن أصبح كلّ كاتب يتحدّث عنها ويجعل منها بطلة لرواياته، لكنّ أحدًا منهم لم يحاول أن يخوض تجربتها...

- أنت تخيفني...

- لا زال الشعراء ينتحرون في هذا البلد.. هناك منْ يلجأُ إلى الجسور وهناك منْ يرتمي تحت عجلات القطار وهناك منْ يقتلونه معنويا ويستعملون ضدّه الحرب النفسية.

- يا الله... أمرٌ مؤلم.. أشعر برغبة جارفة في البكاء.

- ذات يوم كان هناك شاعر، شاعر منْ الصحراء، يدعى عبد الله...

- ما به؟ هل انتحر أيضا ؟

- لقد اختار السكّة الحديدية لتشهد أنفاسه الأخيرة وكان له صديق شاعرٌ منْ قسنطينة كان يُدعى فاروق أصيب بأزمة نفسية شديدة جعلته يضع حدًا لدقّات قلبه...

- ما هذا؟ لماذا تسرد لي كلّ هذه المواجع؟

- لا أقصد أن أوجعك، لكنّ الوجع الّذي أحمله في قلبي لا يفهمه أحد.

- لماذا لا تقصد طبيباً نفسانيا؟ سيساعدك حتما..

- مشكلتي ليست نفسية.. لأنّي أعرف تماما ما أُعاني منه.

- ممّ تعاني إذن؟

- قضيّة فلسفية كبرى، لا أظنّك تفهمينها.

- ربّما لا أحتاج إلى أن أفهم، لكنّكِ أنتِ منْ تحتاجين إلى الفهم العميق.. هذه الدنيا ليست مجرّد ألقاب نركض خلفها، هناك أمور أجمل تستحقّ منّا أن نهتمّ بها.

- لست ممّن يبحث عن الشهرة والأضواء، أنا أبحث عن نفسي، نفسي تلك الّتي لم أجدها بعد...

- وهل تظنّ الموت سيجعلك تفهم حقيقة نفسك؟ يا سيّدي بعد الموت لن تملك فرصة أخرى للعودة إلى الحياة وإلقاء نظرة على

روحك..

- أنا لم أقل أنّني سأنتحر..أنا أحدّثك عمّا يدور في قلبي منْ صراعات.

- لكنّني أخاف أن تستجيبِ لنداء الشيطان... أنا أخاف.

- أتعلمين ؟ ربّما لو مُنحَتْ لي فرصة للعودة بعد الموت لعدتُ لأراك وأرحل منْ جديد.

- أرأيتَ؟ لا تزال تتحدّث عن الموت..

- الموت ؟

- .....

- .....

وصلتُ إلى هذا الجزء من المسرحية وتوقّفتُ، لا يمكنني مواصلة القراءة، أشعر بتعبٍ فظيع، وبقلق يمزّق أعصابي، سامحك الله أيّها المجنون.. لماذا كلّ هذا الحزن وكلّ هذا الحجم منْ الألم؟ لا أعتقد أن هذه المرأة المسكينة ستفلح في إقناع هذا الشاعر بعدم الانتحار... توقّفتُ عن القراءة لكنّ الفضول لم يسمح لي بالتوقّف المطلق لأنّني وجدتُ نفسي أذهب إلى الصفحات الأخيرة من المسرحية لألقي نظرة على النهاية والّتي تمنّيتُ أن تكون سعيدة... و قرأتُ

- أتعدني بأن لا تفكّر مجدّدا في موضوع الانتحار؟

-أعدك.. مادام في قلبي نفس ومادامت الشمس تشرق كلّ يومٍ على هذه الأرض.

يا الله كم كنتُ سعيدة بهذه النهاية ! الشاعر لم ينتحر وتلك المرأة الرائعة استطاعت أن تساعده على الخروج منْ تلك الأزمة الّتي كان يعاني منها، الحمد لله...

تأمّلتُ ملامحي في زجاج النافذة الّذي كان يعكس صُورتي، وجدتُ نفسي أبتسم، وكأنّني حقّقتُ إنجازا ما، بصراحة لقد تأثّرتُ كثيراً بكتاباته، كنتُ أعيش القصّة وكأنّني كنت ألعب دور تلك المرأة.. مجرّد التفكير في أمرٍ كهذا يصيبني بالفزع.. لا أزال أتذكّر ما حدث لعبد الله في المصّحة، ذلك الموت الّذي يصنعه الإنسان بيديه.. ثمّ يجيء شخصٌ آخر في مسرحية كتبها شخص كنتُ أعالجه، يحمل نفس اسم عبد الله، وينتحر تحت عجلات القطار، يظلّ انتحارا رغم اختلاف الوسيلة الّتي أدّت إليه... في البداية لم أكن أعرف مدى واقعية تلك الشّخصيّات، عبد الله، فاروق، صافية ولكنّني لاحقا أدركتُ أنّه ذات يوم على وجه هذا الكوكب، كان هناك شعراء يحملون هذه الأسماء ويشتركون في النهاية الحمراء نفسها، دماء تلفّ المكان وروح تتصاعد في سماء الفجيعة، أدركتُ بعدها أنّ هؤلاء الثلاثة كانوا منبع إلهام كبير لأحمد، شعرت بحزنٍ كبير.. ربمّا استطاع أن يُنقذ بطل مسرحيّته الافتراضي من الموت، لكنّ الّذين رحلوا لن يعودوا إلى هذه الحياة، ولن يقرأوا ما كتب الأدباء والشعراء عنهم، ربمّا بموتهم حقّقوا

تلك الشهرة الّتي لم يكونوا ليحصلوا عليها في حياتهم، ثمّ أتذكّر ذلك المثل الشعبي الرائج عندنا «في حياته كان مشتاقا إلى تمرة وبعد موته علّقوا له عرجونا» الآن علّقت لهم العراجين الكثيرة ولا يمكن أبدا لأيديهم أن تمتد لتأخذ تمرةً واحدة..

فتحتُ الشبكة العنكبوتية بحثا عن بعض قصائدهم، تملّكني شعور غريب كان يأمرني بأن أقرأ بعضا منْ كتاباتهم، كيف كان يفكّر هؤلاء؟ ماذا كانوا يكتبون؟ هل وُجدت لهم قصائد في الفرح والجنون؟ هل كان مصيرهم مبرمجا منذ البداية؟ لا أدري... حزن عميق وألم رهيب جعلني أتنهّد بعمق..

وقرأتُ.. كانت قصيدة للشاعر عبد الله بوخالفة وعنوانها إنسان كبير، إنسان بحجم وطن، وربّما بحجم أكبر لدرجة أنّ هذا الكوكب لم يعد يسعه فقرّر الرحيل إلى الأبد.. كان يقول :

راكضًا كان مع النار الجريحه
كان يمضي بين بحرين
ينادي في القفار
ا اغرسي منْ موتي العابرِ
آلافَ الحقول
كان يجري تائها دون إسار
سنةً يحيا وأعواما يموت
فتغطّيه الجبال

بسعوف النخلِ بالماء المطير
وتغطّيه الدماء بينابيعِ الجفونْ
مهرجانٌ مهرجانِ
وصقيعْ...
موتهُ موت الجميعْ

يا الله.. أيّ كلمات هذه ؟ لقد لخّص كلّ معاناته الوجودية وآلامه الّتي كان يمرّ بها، وتلك النّار الّتي كان إلى جانبها ويسابقها، هرباً منهُ إليه، وتلك الحقول والبساتين الّتي كان يريدها أن تحيا بعد رحيله، مرتويةً بدمائه.. في الأخير رغم كلّ ما فعله سيكون موته كأي موتٍ عادي، مجرّد موتٍ وكفى.. كم أنت عبقريّ يا أحمد، لقد استطعتَ أن تكون مؤرّخا لكلّ تلك الشهقات اليائسة ولكلّ تلك النظرات البائسة، لطالما كنتُ أتمنّى أن تكتب عن البؤساء حول العالم، لكنّني لا أعتقد أنّ هنالك بؤسا أكبر من هذا البؤس... فلماذا أحسدكم إذن أيّها الشعراء والأدباء؟ أنا أشفق عليكم، على أرواحكم المتعبة وعلى أحلامكم الّتي تطاردها الرياح لتنسفها في كلّ وادٍ عميق، لا أظنّ أنّني بعد قراءة هذا الوجع المخلّد سأتمنّى أن أصير ذات يوم كاتبة.. يكفيني هذا الألم الّذي أتخبّط فيه منذ اكتشافي لهذه العوالم الغامضة، سأظلّ الطبيبة الّتي تبحث في أسرار العقل المتناقضة عن الروابط الّتي منْ شأنها سدّ هذه الفجوة، تلك الفجوة الضاربة في عمق المفاهيم، سأظلّ أنا ولن أكونكم، لا أحتاج إلى الخلود الّذي لن أناله إلاّ بجنوني.. لكنّني مؤمنة إلى حدّ ما بفلسفة أحمد.. المجانين

لا يموتون، شيء ما في قلبي يصادق على هذه النظرية ويكاد يقسم لي بأنّها صادقة وبالتالي أحتاج إلى خوض غمار الجنون قليلا للتأكد منْ ذلك، لكن تجربة الجنون لا تقبل بالتمثيل كما كان يفعل أحمد، أظنّني يجب أن أفقد عقلي تماما وأحتفظ بذاكرة تخلّد لحظات الفُصام لأستوعب بعد انقضاء تلك النوبة في أيّ عالم كنتُ، وبأيّ طريقة كنتُ أفكّر، ولكنّ هذا لن يُثبت لي أبدا فرضيّة الخلود، وسوف لن يمنح لي فرصةً للبرهنة على ذلك الجنون الّذي بتُّ أصدّقه.....

توقّفي يا سعاد، لا شيء يستدعي جنونك هذا.. لا تزالين تصرّين على اقتحام هذه العوالم الرمادية الّتي لا تعشق الألوان، حتّى بسمتك ثلاثية الأبعاد لم تحتفظ بأبعادها كاملة وتلاشتْ شيئا فشيئا إلى أن صارت شبيهة بابتسامة "الجوكندا"، تلك الّتي لا أعلم إن كانت تبتسم أم تجهش بالبكاء...

أرأيت يا أبي كيف أصبحتْ حياتي؟ أركض مع النار الجريحة وأسابق الّتيه، تماما كما كان يفعل عبد الله، لا تقل لي يا أبي أنّك لا تعرف عبد الله.... هو ليس عبد الله زوج تلك الأرملة الّتي كان طيفُها يلاحقني، إنّه شخص آخر، تعرّفتُ عليه ورقيا.. لكنّه لم يكن شخصيّة منْ ورق، أحيانًا يا أبي ترفض الدماء أن تتحوّل إلى هباء وتأبى الروح أن ترفرف في صمت، فتجيء ليلا عندما تكون شياطين الشعر متأهبّة لتتلو عليها وحيها منْ غير حجاب.. فتتمثّل شعرا وقصائد منْ عبق، أعرف أنّك لا تفهم ما أقوله يا أبي، هههه لكن لماذا تبتسم بهذه الطريقة؟

وكأنّك توافق على كلّ ما أقوله.. أنا لا أخبرك بكلّ هذا لكي تشاطرني الرأي، يمكنك أن توبّخ جنوني، وأقسم لك أنّني لن أبكي ولن أحتمي بأحضان أمّي... لا تزال أنت كما أنتَ، تحتفظ بنفس الملامح، تنظر إليّ منْ علوّ هذا الإطار وأنظر إليك... نطالع بعضنا ثمّ أصرف عينيّ عنك وتظلّ أنت تدقّق النظر في قِبلةٍ واحدة، قِبلة اصطفتْ روحي و لا أزال أصطفيها.. اعذرني يا أبي إن حوّلتُ عنك وجهي... فأنت في كلّ الأماكن، حبيبا لا تدفنه القبور ولا تحرقه النيران الجريحة....

وحلّ المساء معلنا انقضاء النهار... احتضنتُ تلك الأوراق وتنفّستُ بعمق، كان النسيمُ البارد يصفعُ وجهي حينا ويحنو عليّ حيناً آخر، وكانتِ السماءُ تتعرّى لتلبسَ ثوبَ الليل.. وجدت نفسي أسافر بعيدا بعيدا، أذكرُ أنّني رحلتُ إلى كلّ الأماكن الّتي تكتظّ بذكرياتي.. ورُحتُ أبحث عن تفاسير وجودية لم يكن لها أي شرحٍ في قاموس هذا الكون، إلى أن جاءت أمّي، وكعادتها تأتي فارحة لتنقذني منْ حالات الغرق الوجدانيّ... راحت تقصّ عليّ آخر ما سمعتْ منْ حكايا وقصص وماي دور منْ أحداثٍ في العائلة -الّتي انفصلتْ عنّا منذ زمن- بصراحة لم يكن حديثها يغريني بشيء، مجرّد التفكير في القضايا العائلية يشعرني بالغَثيان، حتّى أنّني لم أسألها عن خالي الّذي ذهبتْ تزوره، أظنّه يكفيني ما أمرّ به منْ دوار وهلوسة، كم أنا محتاجةٌ إلى إجازة منْ هموم هذه الحياة، لكنّ هذا الكوكب الأزرق يضيق بي وبجنوني، أنا الّتي اختارت طبّ الأمراض العقلية مُحاولة

الولوجَ إلى ذلك الباطن الخفيّ العصيّ على الفهم أجدُني وبعد فترة قصيرة منْ العمل أقف وسط مفترق طرق، أتفرّجُ على نزوح قوّتي وإرادتي وهروب ذلك الصبر الّذي كنت أغطّي به ضعفي... آه، كم أنتِ معوجّة أيتّها الحوّاء الّتي تسكنني تماماً كالضلع الّذي خلِقتِ منه ! كم أنت بائسة... صدّقيني.. حكايتك يمكنها أن تكون رواية ناجحة لو استطعتِ أن تكتبيها بإبداع أديبة، لكنّك لا تحسنين رفع القلم ومخاطبة الورق، شتّان بين أحلامنا وبين الواقع الّذي نتخبّط فيه...نامي إذن وكفّي عن الحُلم..

تصبحين على خير أيّتها السُّعاد الّتي تحتمي بهيْبتي المزيّفة، تُصبحين على خيرٍ أيّتها الطفلة الّتي تنام في قلبي خوفا منْ انقضاء الطفولة، تصبحين على خيرٍ يا فارحة أيّتها الأمّ الّتي لم ترحّب الدنيا بابنتها الّتي توشك على بلوغ الثلاثين من العمر، ولم تمنحها تلك الصرخة الّتي تزول معها فوبيا الظلام، نعم يا أمّي لا أزال متعلّقةً برحِمك، لا أزال جَنينا، فضمّيني وامنحيني ضوءًا تزول معه الظلماتُ الثلاث هناك، تُصبحين على خير أيّتها المدينةُ الّتي تدّعي الشموخ وتُصارع الصخر والوديان لتمدّ أحضانها جسورا أثقلتها الخطى والأرواحُ المنتحرة، أيتّها المدينة الّتي تقاسم «سيزيفَ» شقاءه، والفرق بينكما أنّه يرتاح منْ صخرته عندما يُدحرجُها التعب وتقفين أنتِ دهرا كاملا معلّقة بين السماءِ والأرض، تصبح على خيرٍ يا أبي، أنا أشعر بالتعب... تعبٌ.. تعبٌ.

عودة الجنون المخلّد

هذا الصباح.. أول ما قمتُ به هو تشغيل هاتفي وفتح النافذة، وإلقاء تحيّة مطوّلة على المدينة الّتي ترتعش تحت غيوم خريفيّة تعلن اقتراب الشتاء، وبدون شكّ المناجاة الصباحيّة-على أصولها- لوالدي الحبيب... هذه طقوسي ومراسيم افتتاح نهاري ولا أظنّ أنّني سأصوم عن أدائها يوما.. هي بمثابة المفتاح الّذي يحرّرني منْ زنزانة كوابيس الليلة الماضية ويمنحني قوّة لتحمّل الدقائق الّتي تمرّ كالأعوام، لا أفهم لماذا منذ نجاحي في امتحان التخصّص أصبحت خطى الوقت متثاقلة، وعادةً كان يمارس الركض على مضمار العمر.. شيء غريب، وكأن عجلة الزمن توقّفتْ عندي وراحتْ تشاهد بدهشة ما يحدث معي مانحةً عقاربَ الساعات إجازةً.. لم يمرّ شهران بعدُ على بداية أسطورة الغموض والهوس، ولكنّني عندما أحاول ترتيب الزمان في فضاء خيالي أجدُني وكأنّني عايشتُ هذه الأحداث لمدّة أعوام... حتّى هذا الإحساس يستحقّ أن يُدوّن في روايتي الّتي أنسجها في عالم من اللاشيء..

شعرت بجوع شديد وكانت فارحة قد أعدّتْ مائدة الإفطار، كان يكفيني أن أحتسي قليلا من القهوة وبعضا من "الكسرة " الّتي تتفنّن أمّي في إعدادها لأصوم عن الأكل إلى الليل... جلستُ وجها لوجه أُطالع أمّي وتطالعني وفي قلب كلّ واحدة منّا كلام تخبّئه عن

الأخرى.. ربّما كانت تُريد معاتبتي وتخشى عليّ في نفس الوقتِ من الانكسار والجروح، وربمّا كنتُ أودّ مصارحتها بكلّ ذلك الجنون الّذي يعبث بروحي علّني أجدُ عندها خلطة أعشابٍ يمكنها معالجتي.. وأتردّد خوفا منْ تلك النظرات الّتي ترتسمُ في عينيها وتترجم الكثير ممّا تخفيه عنّي.. كنّا كمن يقف دقيقة صمتٍ ترحّما على روحه الّتي ما عاد يفهم أين رحلتْ.. لكنّ دقيقتنا طالت ومنحها الصمت عمرا آخرَ، وحدها الفناجين والملاعق كانت تعلن تواجد الأنفاس بين هذه الجدران الأربع.. إلى أن طوتْ فارحة كتاب الصمت...

- ما به وجهك مصفرّا؟

- وجهي أنا؟ ليس بي شيء يا أمّي، ربمّا التعب...

- اذهبي وقومي ببعض الفحوصات، حالتك هذه لا تُفرحني أبدا..

- قلتُ لك يا أمّي أنا بخير، لم أنم البارحة، هذا كلّ ما في الأمر.

- لا، أنتِ هكذا منذ زمنٍ بعيد، منذ أن اخترتِ ذلك التخصص تغيّر كلّ شيء فيك، حتّى أنّك صرت تبدين أكبر سنّا.

- لا أعتقد أن تخصّصي هو السبب، هي حالة عابرة وستزول إن شاء الله، توقّفي أمّي أرجوك.

- لماذا؟ ما الّذي قلتُه؟ أنت تكرهين الحقيقة، وتهربين من الواقع، عيشي كغيرك من الفتيات، ودعيك منْ هذه الهواجس

الّتي ستفقدك عقلك وستجدين نفسك في آخر المطاف في نفس المصحّة الّتي تعملين بها.

- آه.. أمّي، أنتِ تعذّبينني، حاولي فهمي ولو مرّة واحدة، أنا لم أتذمّر يوما منْ عملي، بالعكس أنا أحبّه، ولا تقلقي أبدا، فإن كان الجنون قدري فلا مفرّ منه.

- حسناً.. أكملي فطورك يا مجنونة، أنا سأذهب عند الجارة قليلا، تكاد روحي تختنق.

- لا بأس، سأنتظرك وعند عودتك سأخرج أيضا.

- إلى أين؟

- أريد اقتناء بعض الكتب..

- أسأل الله أن يعينني على ابنة مثلك.. لن أتأخّر.

غادرت أمّي..تجرّ خطى متثاقلة، وبقيتُ أنا أرصد بعينين متعبتين انصرافها، وبقيتُ وحدي كما ألِفتني هذه الجدران وألفتُها، وفي لحظة يلفّها البرد ويعانقها الصقيع تذكّرتُ أحمد، شعرتُ بأنّني محتاجة إلى الاتصّال به، شيء ما كان يأمرني برفع الهاتف ومكالمته، هذا الهاتف الّذي فتحتُه منذ ساعة أو أكثر لكنّه لم يرنّ... ألهذه الدرجة لا يوجد أحدٌ يفتقدُ غيابي..؟ ربمّا اتصلّوا بي عندما كان الهاتف مغلقا.. لا مزيد من التساؤلات، سأتصل أنا، أريد أن أخبره عن مدى تأثّري

بكتاباته، عنِ الإحساس الّذي تملّكني بعد قراءة تلك المسوّدة، وعن الفلسفة الّتي لخّصها في ديوان الأعصاب المتناحرة، نعم سأتصل به، لديّ الكثير من الكلام، أظنّني ظلمتُ هذا الشاعر كثيرا وحان الوقتُ لكي أغفر له تلك التمثيليّة الّتي قام بها بحثا عن إلهامٍ مجنون، أعتقد أنّه يستحقّ قليلا من الثناء.. وحتى في علم النفس يقال بأن المدح يزيد من الإبداع ويفجرّ الطاقات الدفينة، ولأنّ القدر لم يمنحني طاقة إبداعية ولا قَلما فصيحا فمن واجبي تقدير أولئك المبدعين والإقرار لهم بالتميّز.

حملتُ الهاتف ورحتُ أبحث عن رقمه الّذي لم أجعل له اسمًا، كان يكفي أن أراه لأتذكّر أنّه لأحمد، تلك السلسلة الغريبة من الأصفار، حاولتُ الاتصال به وانتظرتُ أن يرنّ الهاتف في مكان ما على هذه الأرض، لكنّني لم أسمع أيّ ردّ، وكرّرتُ المحاولة كثيرا وفي كلّ مرّة تخبرني الرسالة الصوتية أنّ الهاتف مغلق أو خارج نطاق التغطية، بصراحة شعرتُ بالغضب، لم أكن أبدا من النوع الصبور، ولم أكن ممنّ يتحمّلون الانتظار، كنتُ أتوقّع أن يتّصل بي عند أوّل تشغيل للهاتف، لكنّني أرى الأمور تسير بطريقة أخرى، سأنتظر ثمّ أعاود الاتصال، ربّما كنتُ أبالغ فقط..

تركتُ الهاتف وألقيتُ نظرة من النافذة محاولةً التنقيب عن هواء نقيّ.. لكنّ الضجيج الّذي كان ينبعث من الشارع أرغمني على التراجع، في تلك اللحظة رنّ الهاتف، كنت موقنة منْ أنّه أحمد، لم

يكن يخالجني أيّ شكّ في ذلك، إلى أن قرأتُ اسم مريم على شاشة الهاتف، لقد خاب يقيني..

- ألو، صباح الخير.

- أهلا بالطبيبة الغائبة، كيف الحال؟

- نقول الحمد لله رغم الأسى... ماذا عنك؟

- أي أسى يا سعاد؟ هه اشتقتِ ربمّا إلى المرضى..

- إذا أردتِ الصراحة.. نعم.. شيء رهيب أن نجالس الفراغ لمدّة طويلة..

- هل تحسّنتْ نفسيّتك قليلا؟

- دعيكِ منّي.. ما جديدك أنتِ؟ كيف هي عائلتك الصغيرة؟

- كالعادة.. أقدّم التنازلات لتستمرّ الحياة... وتستمرّ فعلا هههه، بالمناسبة تذكّرتُ أمرا.

- ما هو؟

- اتّصلتُ لأخبرك هههه، أتذكرين ذلك المريض الّذي كنتِ قد بدأت في معالجته؟

- من؟ من؟ أحمد؟ مابه؟

- لا تخافي، لم يحدث له شيء، هو الآن في المصحّة وأظنّه سيظلّ هنا طويلا هذه المرّة.

- مريم... هو ليس مريضا.. هو... هو..

- سُعاد حبيبتي يجب أن أقطع المكالمة، هناك مصدر إزعاج كبير يجب أن أتخلّص منه، أكلّمك لاحقا..

يا إلهي.. ! ماذا يفعل ذلك المجنون هناك؟ أما آنَ له أن يترك لعبة التمثيل هذه؟ ماذا يريد منْ كلّ هذا؟ ولماذا عاد إلى المصحّة؟ لا يجب أن أظلّ واقفة هنا بينما مسرحية الأوهام قائمة هناك.. سأغادر حالا، لا أريد إجازةً ولا أيّ عطلة أخرى، سأذهبُ إلى عملي واليوم قبل الغد سأفهم منه كل شيء، سأعيدُ له أعماله، وسأحاول فهم نظرياته المعقّدة، هو لا يزال يخدع الناس منْ حوله.. لكنّني هذه المرّة لن أسكتَ.. لا يحقّ له أن يدّعي المرض بينما هو لا يعاني منْ أي مشكلٍ عقليّ، أصعب شيء في مهنتنا أنّنا لا نعالج الأمور الملموسة، أغلب فحوصاتِنا وتشخيصاتنا تكون مبنيّة على أسسٍ معنوية، لا دليل لنا لنثبت صدقها..

آتية أنا أيّها الجبل العالي، آتية أيّها الوحش الّذي لم يرد أن يكشف عن ملامحه بعد، لم أعد خائفة منك ولستُ بحاجة إلى الهروب من المقابر خوفا منْ ملاقاتك، لأنّي ابتداءً منْ هذه اللحظة سأشقّ طريقي بين أشجار الصفصاف لكي أزور والدي، وسأمنح حنجرتي

الحرّيّة لأغنّي ما أشاء من الألحان، فلتذهب أيّها الوحش إلى الغياب ولتغب معك كلّ تلك الأساطير الّتي لا يزال المجانين يؤمنون بها... آتية أنا..

لبستُ بسرعة، أخذت حقيبتي وخرجت من البيت ، حتّى أنّني لم أكلّم فارحة، تاركة الباب مفتوحا، وكنت على يقين أنّ أمّي عند عودتها ستظلّ توبّخني بينها وبين نفسها لمدّة ساعة كاملة ثم تلين في آخر المطاف وتسأل الله لي السداد والهداية.. خرجتُ حاملة ذلك القلق الّذي ما عدتُ أقدر على حمله بمفردي، كنت أحتاج إلى أن يشاركني الكون وإلى أن تساعدني المخلوقات، لكن لا أحد منهم استجاب، الكلّ يقف متفرّجا على ألمي، مدوّنا العبرة ممّا يحدث معي، وأنا لحدّ الآن لم أفهم العبرة ولم أجد طريق الخلاص منْ هذه الوساوس... قمتُ بتوقيف سيّارة أجرة، أخبرته أن يأخذني مباشرة إلى مصحّة "محمود بلمعمري"...

عند وصولي، شعرتُ بصفعة ريحٍ قويّةٍ على وجهي، ربّما كانت طريقتها في الترحيب بالغائبين وربّما كانت تلومني..لا أعلم.. كلّ ما أتذكّره أنّها منحتني بردا إضافيا صاحبني لساعات طويلة...

نظرتُ منْ حولي، كان المكان هادئا.. كان الوقت منتصف النهار وكانت السماء غائمة إيذانا بمطر قادم.. لم أحاول أن ألفت انتباه أحدٍ، دخلتُ المصحّة كمن يتسلّل هربا، كان قلبي يدق وأنفاسي تتسارع، ماذا لو رآني المدير هنا؟ سيظنّ حتمًا أنّني جننتُ، واحتمالٌ

كبير أن يُقيلني إلى لأبد، فكلّ ما أقوم به لا علاقة له بالعقل السّويّ في مفهومهم وفي مفهوم العاقلين من البشر، لكنّ مشكلتي أنّني لم أعد أنتمي إلى فصيلتهم منذ زمن بعيد... صار لي عالم آخر، منْ جنون وفلسفة، امتزجا حبّا وشكّلا كوكبا لهما، كوكبا لا يليق بالعقلاء ولا حتّى بالأطباء... لا أدري كيف حملت لقب الطبيبة وتمكّنت منْ عبور الحواجز الأمنية فيه.. ربمّا عبرتها بهويّة أخرى.. نعم إنّها هوّية «المجنونة» !

أين أنت أيّها الشاعر؟ دعني أردّد بين شفاهي بيتك الّذي قرأته لي عند أول يوم لي هنا...

الموتُ للآتين منْ رحم الأسى

أمّا الجنون فلا يموت ولا يغيب

قادمة بخطى واثقة، لأنّي مؤمنة أنّك بخير وأنّك لستَ ولم تكن يوما مريضا، أنت لا تعاني منْ أي مشكلة، قادمة يا أحمد، أرتدي مئزرا أبيض وأحمل أوراقا بيضاء ولا أملك قلما في جيبي.. أتيتك منْ دون السلاح الأبيض كما كنتَ تطلق عليه، آتية وفي كلّ خطوة، أتوقّف لأتنفّس قليلا، خائفة من المشهد الّذي قد أراك عليه، خائفةٌ منْ طقوس نتف الشعر والطواف سبعةَ أشواط حول سجنك كما أطلقت عليه، لا تزال تلك الصور عالقة في خيالي، خائفةٌ أن تكرّر على مسمعِي حكاية ماريانا ولوركا.. خائفةٌ أنا منْ كلّ شيء....

- أحمد...

- منْ تكونين؟

- أنا سعاد... لا تذكرني؟

- لماذا جئتِ إلى هنا؟

- لماذا عدتَ إلى هنا؟

- هذا موطني.. أعود إليه متى شئت.

- أحمد.. هل هذه تمثيليّة جديدة؟

- لا شيء يجبرني على التحدّث معك.

- أحمد...ألا تريد مسودتك؟ ألا تذكر لوحة الأعصاب المتناحرة؟ ألا تذكر منْ تكون؟ ومن أكون؟

- هههه أنتِ طبيبة وأنا مريض.. هذا ما أعرفه... يمكنك الانصراف.

- أحمد.. أرجوك، أتوسّل إليك، توقّف عن هذه المسرحيّة، أنا متعبة جدًا.. متعبة.

- وأنا متعب... متعب.

- أعجبتني قصائدك، وقصّة الشاعر الّذي نجا منْ هوس الانتحار..

أنت مبدعٌ يا أحمد.

- هههه لكنّه سينتحر في الجزء القادم، لأنّ منقذته ستتخلّى عنه.

- أنتَ لستَ مجنونا... أنت تدرك ما تقول.. لماذا تفعل هذا ؟

- أخبرتكِ أنّ المجانين لا يموتون.

- أذكر هذا...

- لو لم أكن مجنونا لما خُلّدتُ في العذاب...

- أحمد.. توقّف.. يكاد رأسي ينفجر.

- ستعود زهرة الكوكب البنفسجيّ للحياة.. هي تنتظرك الآن عند سفح الجبل.

- لا إله إلاّ الله.. لا إله إلاّ الله..

- أمّا الآن أريد أن أتعبّد قليلا..

- أحمد...

- هههه مجانين أيّها الأطبّاء.. دعيني أصلّي.

- أحمد...

- خذي كلّ شيء..، أشعاري، لوحاتي، ذاكرتي وامنحيني سلاما،

قد حان وقت الصلاة.

- أحمد...حراااااااام ما يحدث معي.

بكيتُ وبكيتُ... غادرتُ المصحّة.. مررتُ بجسر الشيطان وبجميع الجسور، لكنّني لم أنتحرْ.. صرختُ وصرختُ لكنّني لم أجنّ، انقضتْ إجازتي وعدتُ إلى عملي، استطعت التّأقلم مع الحزن.. وكأنّ معجزة ما حملها القدر إلى قلبي..

مرّ عام من الزمن.. ولا يزال أحمد في غرفته.. ولا أزال أنتظر إفاقته منْ سباته.. أجمع الأطبّاء على استحالة شفائه.. لكنّني لم أفقد يوما الأمل في ذلك...

أمّا أنا، فمنذ ذلك اليوم وأنا أكتب وأكتب، لا أدري ما الّذي تغيّر في مورثّاتي.. كلّ ما أعرفه أنني جمعت كتاباتي وجعلت لها عنوانا.. «المجانين لا يموتون».

كان مجردَّ بيتٍ شعري يقولهُ مريضُها في مصحّة الأمراض العقلية كافيًا لأن يُدخل الطبيبة المقيمة "سعاد سلامي" في متاهات وجدانية وصدمات مفاهيمية لم تستطع تحليلها.

تدور أحداث الرّواية في مدينة الجسور المعلقة قسنطينة. وبين حيّ القصبة وجبلِ الوحش وطيفِ والدها الرّاحل وذكرياتِها القديمة تمرُّ سعاد في ظرف لا يتجاوز الشهرين بأكبر تجربةٍ غامضة في حياتها.

ISBN 978-9931-00-738-8
9 789931 007388

مكتبة نوميديا 90
Telegram@ Numidia_Library